جماعة الصادعون بالحق

الفصل الرابع

شروح

كتاب

معالم في الطريق

الجهاد في سبيل الله

للشيخ

مصطفى كامل محمد

هذا الكتاب من تراث جماعة الصادعون بالحق

حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة للمؤلف© ٢٠٢٠
ويسمح بالنشر الإلكتروني للمحتوى بشرط نسبته للمصدر وعدم تعديله

مقدمة ١

هدي الرسول ﷺ مع الكفار والمنافقين ٢

سمات المنهج الحركي لهذا الدين ٣

السمة الأولى: الواقعية الجدية في منهج هذا الدين ٣

السمة الثانية: الواقعية الحركية لهذا الدين (المرحلية في المنهج الإسلامي) ٤

السمة الثالثة: ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل ٥

السمة الرابعة: الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات ٦

تشخيص الواقع ودوره في تحديد المنهج ٦

مفهوم وأهمية ودور الجهاد الصحيح في الإسلام ٨

التوافق بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض ١٢

الإسلام لا يقوم بالبيان والبلاغ فقط ١٣

الحكمة من كف الأيدي في مكة ١٦

الحكمة من كف الأيدي في أول العهد بالمدينة ١٨

مبررات الجهاد في الإسلام ١٩

قضية عقيدة ٢٥

الإسلام عقيدة ومنهج لا بد أن ينظم الحياة ٢٦

المرحلية في الإسلام ٢٨

أهمية تشخيص الواقع في قضية المرحلية ٣٢

معنى المرحلية ٣٣

تطبيق المرحلية لا يعني التنازل ٣٤

التدرج في الشريعة الإسلامية ٣٥

أنواع التدرج في التشريع ٣٦

الحكمة من التدرج التشريعي ٣٨

التدرج في التطبيق ٤٣

مرتكزات القول في التدرج في التطبيق ٤٥

الجماعة المسلمة ٥٠

ضرورة وجود الجماعة ٥٢

أولا: الأحاديث الواردة في الجماعة ٥٣

ثانيا: مرادفات كلمة الجماعة.. ٥٧

ثالثا: دعائم أو أسس الجماعة المسلمة ٥٩

رابعا: المصالح التي تتحقق من خلال إقامة الجماعة ٦٢

خامسا: خطوات بناء الجماعة المسلمة.. ٧٣

سادسا: خصائص وركائز الجماعة المسلمة ٨٠

الجهاد في سبيل الله

مقدمة

لا شك أن الجهاد في سبيل الله هو سنام الإسلام كما أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: "ألا أنبئك برأس الأمر؟ رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد"[١] ولعل تعبير سنام الإسلام يعطي الإيحاء بأنه قمة الصراع وقمة البناء.

ويأتي دائما الجهاد بمعنى القتال في اللحظات التي تسبق النهاية، فيكون هذا الجهاد بمثابة الضربة الأخيرة للطاغوت وجنده حتى يستقر الحق في هذه الأرض. ولا شك أن كون الجهاد سنام الإسلام لا يعني أنه هو الإسلام في ذاته وإنما هو أعلى أجزاء الإسلام وقمته، وبلوغ القمة والثبات عليها بحاجة إلى جهد يُبذل ومجاهدة للنفس مستمرة لذلك سُمي القتال لإعلاء كلمة الله بالجهاد في سبيل الله. وهي لفظة معبرة تزخر بالكثير من المعاني والدلالات كما سنرى إن شاء الله.

والجهاد بمعنى القتال -كما هو المقصود هنا- ليس وقفاً على المسلم، فالقتال هو سمة من سمات الإنسان، وأحد الإفرازات الطبيعية للحياة البشرية. لأن التدافع هو سنة من سنن الله في هذه الأرض، فالذين يقاتلون ويَقتلون ويُقتلون ليسوا المؤمنين فقط، وليسوا هم فقط الذين يعملون لرفع راية الإسلام، إنما البشرية كلها تتدافع وتتقاتل منذ أن خُلق الإنسان وحتى الآن.. ولكن العبرة بالأهداف والغايات، والدوافع والنوايا، والنتائج التي يحددها قتال المقاتلين وجهاد المجاهدين.

ونحن -هنا- حينما نتحدث عن الجهاد نتحدث عنه بهذا المعنى الخاص؛ وهو القتال والدخول في صراع مع الجاهلية من أجل إعلاء كلمة الله، ومن هنا يكون جهادا في سبيل الله. أما الجهاد بالمعنى العام وهو كل جهد يبذل من أجل استقامة الإنسان على طريق الله عز وجل؛ أوسع مدىً وأعمق أبعاداً من مجرد الجهاد حينما يكون قتالا. ولعل كثيراً من الناس، بل أكثر الناس يسهل عليهم القتال في ميادين القتال، ويصعب عليهم جهاد أنفسهم، وتخطي صعاب الشهوات والغرائز والأهواء. فالجهاد بمعناه العام يضم أنواعاً كثيرة من المجاهدة والتعب، ولا شك أن جهاد النفس هو أصعب كثيراً جداً من القتال بالسيف وذلك لأن جهاد النفس يصطدم اصطداماً هائلاً مع خطط الشيطان في الأرض، ومع الإغواء والاستهواء اللذين يتعرض لهما الإنسان في مسيرته على هذه الأرض. ولعل كلمة الجهاد تعني أيضا استمرار هذه المدافعة بين الإنسان وبين أهوائه، وبين الإنسان وبين الشيطان، وبين الإنسان وبين أعداء الإنسان في كل وقت؛ سواء كان قتالاً، أو كان إغواء، أو كان استهواءً، أو أي شيء آخر، فهو جهاد مستمر لا ينقضي في حياة الإنسان حتى يموت. ولا ينقضي الجهاد في الأرض -بمعنى القتال- حتى تنتهي هذه الأرض أيضاً. ونحن وإن كنا سنتحدث عن الجهاد بمعناه الخاص إلا أنه لا بد من أن نعرج على الجهاد بمعناه العام أيضاً.

---

١ أخرجه الحاكم في المستدرك.

بدأ الأستاذ سيد الحديث عن فصل الجهاد في سبيل الله بذلك التلخيص القيّم الذي ورد عن ابن القيم في كتابه "زاد المعاد" ولعل الإنسان -لأول وهلة- كان يظن أن يأتي هذا التلخيص بعد أن يشرح الأستاذ سيد قضية الجهاد، فيستدل بهذا النص بعد ذلك على ما يقول، ولكن لعل إيراد النص في مقدمة الفصل؛ قصد منه الأستاذ سيد رحمه الله التركيز على أن علماءنا السابقين لاحظوا هذه السمات التي يريد أن يتحدث عنها، فجاء بها كدليل مسبق على كلامه.. كأن هذا كلام الأقدمين، ونحن نؤكده، وليس أن هذا كلامنا سنستدل عليه بكلام الأقدمين.. فالحق قديم يدركه الأول كما يدركه الأخير لأن نبع الحق واحد لا يختلف.

وما جاء به الأستاذ سيد إنما هو إحياء لما تكلم به وعنه علماؤنا الصالحون، ولم يكن ما قاله بدعاً من القول، ولم يكن ما قاله جديداً. وإنما الجدة فيه أنه جديد على قوم قد جهلوا الإسلام وجهلوا كل ما يتصل بالإسلام، وأيضاً جديد على أعداء الإسلام الذين كانوا يتصورون أنهم فرغوا من تضليل وقمع هذه الحقائق واستراحوا منها.. فجاء الأستاذ سيد ليجليها مرة أخرى بهذا الوضوح.

وللحقيقة والإنصاف.. لا نقول أن الأستاذ سيد هو أول من تحدث في هذه المعاني في هذا العصر، فقد سبقه إلى ذلك الأستاذ المودودي، وكان له جهاد كبير في هذا الميدان، ولعل الأستاذ سيد قد استفاد كثيراً جداً من الأستاذ المودودي، فكثير مما قاله الأستاذ سيد كانت بذوره واضحة عند الأستاذ المودودي، وأيضا هناك أشياء كنا نظن أنها اجتهاد محض وابتكار محض من الأستاذ سيد، والحقيقة أن الأستاذ المودودي كان عرج عليها وتحدث عنها، وهذا لا يقلل من جهد الأستاذ سيد، وإنما الإنصاف يفرض علينا أن نُرجع الفضل لأهله باستمرار، فضلاً أن المؤمنين متضامنون، والأجيال المؤمنة متضامنة، والعلماء المخلصون لا يستأثرون ولا يحتكرون العلم، ولا يحتكرون المعرفة، ما داموا جميعاً مبلغين عن الله. فلا يقلل من ريادة الأستاذ سيد أن يكون قد استفاد ممن سبقه، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها، ليس فقط إن أتت من المؤمنين، ولكن حتى لو كانت آتية من الكافرين.

هدي الرسول ﷺ مع الكفار والمنافقين

الملخص الذي قدمه الأستاذ سيد في هذا الفصل؛ والذي نقله عن ابن القيم رحمه الله فصل في ترتيب هديه ﷺ مع الكافرين والمنافقين من حين بَعثِهِ إلى حين لقي الله عز وجل، وفيه توضيح لكل ما يريد أن يقوله الأستاذ سيد عن موضوع الجهاد بعد ذلك. وسنذكره لكي نرتب عليه بعد ذلك كل الحقائق التي تليه.

يقول ابن القيم[٢]: "أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق، وذلك أول نبوته، فأمره أن يقرأ في نفسه، ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ. ثم أنزل عليه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ [المدثر: ١-٢]، فنبأه بقوله ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١] وأرسله بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ [المدثر: ١]. ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين. ثم أنذر قومه. ثم أنذر من حولهم من العرب. ثم أنذر العرب قاطبة. ثم أنذر العالمين. فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف والصبر والصفح.

ثم أُذن له في الهجرة، وأُذن له في القتال. ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله. ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله.

٢ زاد المعاد. ج٣. ص١٤٣-١٤٥.

ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام: أهل صلح وهدنة، وأهل حرب، وأهل ذمة. فأُمِر أن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم، وأن يوفي لهم به ما استقاموا على العهد، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم، ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد. وأُمِر أن يقاتل من نقض عهده.

ولما نزلت سورة براءة نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها؛ فأمره فيها أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا في الإسلام، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم.. فجاهد الكفار بالسيف والسنان، والمنافقين بالحجة واللسان، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم.

وجعل أهل العهد في ذلك ثلاثة أقسام: قسماً أمره بقتالهم؛ وهم الذين نقضوا عهده ولم يستقيموا له. فحاربهم وظهر عليهم، وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم، وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه، أو كان لهم عهد مطلق، فأُمر أن يؤجلهم أربعة أشهر، فإذا انسلخت قاتلهم.. فقتل الناقض لعهده، وأجل من لا عهد له أو له عهد مطلق أربعة أشهر، وأمره أن يُتم للموفي بعهده عهده إلى مدته. فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم. وضرب على أهل الذمة الجزية.

فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام: محاربين له، وأهل عهد، وأهل ذمة. ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام، فصاروا معه قسمين: محاربين، وأهل ذمة. والمحاربون له خائفون منه.

فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام: مسلم مؤمن به، ومسالم له آمن، وخائف محارب.

وأما سيرته في المنافقين فإنه أُمر أن يقبل منهم علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة، وأمره أن يعرض عنهم، ويغلظ عليهم، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم، ونهاه أن يصلي عليهم، وأن يقوم على قبورهم، وأُخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم. فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين".

سمات المنهج الحركي لهذا الدين

فلا شك أن هذا التوضيح يحمل كل سمات قضية الجهاد كما سيعرضها الأستاذ سيد فيما يلي من الحديث:

"ومن هذا التلخيص الجيد لمراحل الجهاد في الإسلام تتجلى سمات أصيلة وعميقة في المنهج الحركي لهذا الدين، جديرة بالوقوف أمامها طويلاً، ولكننا لا نملك إلا أن نشير إليها إشارات مجملة:

السمة الأولى: هي الواقعية الجدية في منهج هذا الدين"

السمة الأولى: الواقعية الجدية في منهج هذا الدين

والواقعية تعني التعامل مع الحقيقة الواقعة، وليس مع الافتراضات، وليس مع الآمال والأماني التعامل الذي يقابل الواقع بحجم معين وبحاجات معينة..

فأول سمة في المنهج الحركي لهذا الدين في مواجهة أعدائه هي الواقعية الجدية؛ فهي تواجه واقعا بشريا، وتواجهه بوسائل مكافئة لوسائله؛ سواء كانت هذه الصور والعقبات عقبات تصورية فكرية، أو عقبات مادية من سلطة ودولة، أو أدوات واستعدادات.. كل هذا أُمِرَ الرسولُ ﷺ أن يُواجهه بما ينبغي أن يواجهه به.. فلم يكن موقف الرسول ﷺ مع الجاهلية كما يدعي بعض الناس أنه كان يبلغ فقط بالبيان.. كلا، فالبلاغ ليس بالبيان فقط، وإنما بالبيان وبالسيف والقتال.. وكل هذا بلاغ، لأنه يوصل كلمة الحق إلى قلوب الناس وإلى أعماقهم. ولم تكن هذه المواجهة؛ سواء بالبيان والبلاغ، أو بالقدوة، أو بالجهاد والسلاح.. لم يكن المقصود منها إكراه الناس على العقيدة، ولا إكراه الناس على الإيمان، ولكن كان هناك غرض آخر؛ هو أن يرفع عن كاهل الناس كل القوى وكل القهر الذي يمنعهم من الاستجابة للحق إذا أرادوا، كان المقصود أن يرفع عنهم كل الضغوط التي تقع على كاهلهم؛ ضغوط السلطة والإرهاب والطغيان والتخويف والإغراء والإغواء والإفساد.. فإذا رُفع كل هذا يقال للناس: لا إكراه في الدين، وكلٌ يختار ما أراده، ولكن تحت مظلة الحكم الإلهي، وليس تحت أي مظلة أخرى.

السمة الثانية: الواقعية الحركية لهذا الدين (المرحلية في المنهج الإسلامي)

وهي التي بدت حينما سمعناها أول مرة جديدة علينا، وهي في الحقيقة ليست جديدة.. ولكنها كانت جديدة علينا لأننا كنا نجهلها، فلم يكن قد سبق لنا أن رأينا أو سمعنا؛ سواء في جماعة الإخوان، أو في كتابات من يكتبون عن هذا الدين وعن حركته، لم نسمع عن قضية المرحلية، أو قضية التدرج بالحركة وببعض التكاليف. كانت هذه جديدة تماماً علينا، وكان المفهوم أن الواقع مسلم، وأن الدين قد اكتمل، وأننا مطالبون أن نقيم الإسلام كله، وأن الواقع الموجود -رغم بعده الكامل عن دين الله كما اكتشفنا- كان مطالباً أن يدعى إذا دُعي إلى الإسلام، يُدعى بالنصوص النهائية، ويطالب بالصورة النهائية تماماً، بصرف النظر عن نقطة الالتقاء بينه وبين الإسلام.

جاءت فكرة المرحلية التي يقول عنها الأستاذ سيد: الواقعية الحركية ... أن هذا الدين ومنهج الحركة في هذا الدين **"هي حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها.. فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة.."** فالنظرية المجردة لا تحل إشكاليات الواقع، فهي نظريات لا تتعامل مع حقائق واقعية، وإنما تتعامل مع أفكار نظرية ليس لها صلة بالواقع، كما أنها تقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة بحيث أنها لا تستطيع أن تتغير أو تتلاءم، أو أن تعالج الواقع الذي أمامها بوسائل تتناسب مع اللحظة التي التقت فيها مع هذا الواقع. وإنما الإسلام يلتقي مع هذا الواقع بوسائل متجددة متطورة، وأيضاً بنظرية قادرة على أن تتحقق في عالم الواقع من خلال فكرة المرحلية وفكرة التدرج، فهو يلتقي مع الناس في النقطة التي يلتقي بهم فيها، ويتعامل معهم في نفس النقطة بما يكافئ واقعهم ويكافئ استعدادهم ويكافئ قدراتهم ويكافئ حاجاتهم أيضاً فآيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ يجد الناظر والمتأمل فيها ما يعالج ويجيب ويحقق إيمان الناس من خلال مستوى المرحلة التي هم فيها.

والذين يصفون النصوص القرآنية النهائية على أنها الصورة الوحيدة التي لا بد أن تواجه الناس في كل وقت.. هؤلاء لا يعرفون حقيقة الإسلام، ولا يعرفون حقيقة منهج الله في التعامل مع الواقع، ولا يعرفون رحمة الله في التعامل مع الناس في حدود قدراتهم وفي حدود حاجاتهم وفي حدود إمكانياتهم. ولذلك فهم يحمّلون أنفسهم ويحملون الناس ما لا يطيقون، ثم هم أيضاً لا يستطيعون أن يحققوا النتائج

لأنها تتصادم مع قدرة الواقع الذي يعيشون فيه، وتظل الرغبات والأماني معلقة على المستحيلات، لأنها ليست موجودة باستمرار.. وهذا ما سنفصله بعد ذلك إن شاء الله.

يقول الأستاذ سيد: **"الذين يصنعون هذا يخلطون خلطاً شديداً ويلبسون منهج هذا الدين لبساً مضللاً، ويحملون النصوص ما لا تحتمله من المبادئ والقواعد النهائية. ذلك أنهم يعتبرون كل نص منها كما لو كان نصاً نهائياً، يمثل القواعد النهائية في هذا الدين، ويقولون -وهم مهزومون روحياً وعقلياً تحت ضغط الواقع البائس لذراري المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا العنوان-: أن الإسلام لا يجاهد إلا للدفاع! ويحسبون أنهم يُسْدُون إلى هذا الدين جميلاً بتخليه عن منهجه وهو إزالة الطواغيت كلها من الأرض جميعاً، وتعبيد الناس لله وحده، وإخراجهم من العبودية للعباد إلى العبودية لرب العباد! لا بقهرهم على اعتناق عقيدته، ولكن بالتخلية بينهم وبين هذه العقيدة.. بعد تحطيم الأنظمة السياسية الحاكمة، أو قهرها حتى تدفع الجزية وتعلن استسلامها والتخلية بين جماهيرها وهذه العقيدة، تعتنقها أو لا تعتنقها بكامل حريتها.."**

وهؤلاء الذين يخلطون هذا الخلط، ويتصورون أن كل النصوص القرآنية هذه نصوص نهائية يقعون في واقع الأمر في تناقض بعد قليل، لأنهم سيجدون أن مدلولات هذه النصوص تتناقض في نتائجها وتتناقض في مطلوباتها. ولكنهم لو استطاعوا أن يدركوا الحقيقة سيفهمون أن هذه النصوص هي نصوص مرحلية، فكل نص كان يرتقي، أو يعالج الواقع في مرحلة من المراحل. فإذا جاوزه جاء نص جديد ليقود الواقع إلى مرحلة أعلى، ويواجهه بأسلوب جديد. وهكذا.. حتى وصل بهم إلى نقطة القمة، فكان النص النهائي الذي استقام مع واقع الناس وقدراتهم، ولم يتنافر ولم يتناقض مع مقولات هذا الدين. وإلا فإننا سنجد أن هذا الدين بهذه الصورة كتاب متناقض وسنة متناقضة، وحاشا لله أن يكون كذلك، ولكن الذين لا يفهمون هم الذين يرونه متناقضاً، لأنهم لم يعرفوا حقيقة أن هذه النصوص جاءت للتعامل مع واقع معين، ثم جاء نص جديد ليتعامل مع ذلك الواقع في صورته الجديدة بعد تطوره وبعد نموه وبعد اختلاف حاجاته وبعد اختلاف صوره ومتطلباته، إذا أدركوا ذلك سيجدون أن الأمر واضح ومفهوم، وأنه ليس هناك تناقض.. بل هناك تسلسل طبيعي، كتسلسل الكائن البشري أو الكائن العضوي وهو ينمو من مراحل الطفولة أو حتى وهو جنين إلى مرحلة الرشد وإلى مرحلة الشيخوخة والنهاية، وسيجدون أن الكائن العضوي يتعامل معه الإنسان تعاملاً مرتبا ومتسلسلاً مع نمو هذا الكائن العضوي، ويقدم له الحاجات حسب ما يطيق في مرحلته التي يرتقي بها معه، فإذا نما نمت وتغيرت متطلباته، واستجيب له استجابة جديدة بصورة جديدة.. وهكذا. فالمجتمع الإنساني هو مجتمع عضوي، والواقع البشري هو كائن عضوي ينمو من نقطة البداية حتى نقطة النهاية، ماراً بمراحل متعددة، ثم على الذين يواجهون هذا الواقع أن يتعاملوا معه كما يتعاملون مع الكائن العضوي تماما، فيمدونه بالغذاء المناسب والاستجابة المناسبة التي تتناسب مع لحظة التقائهم به.

السمة الثالثة: ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل

فهذا المنهج الحركي الإسلامي ذو مراحل -كما قلنا- وليس معنى ذلك أنه تتغير أهدافه أو تتغير قواعده، فالحقيقة أن القواعد ثابتة. فإذا كان الإسلام يقوم على قاعدة لا إله إلا الله، فإن هذه القاعدة لا تتغير أبداً. وإذا كان هدفه الكبير هو إقرار ألوهية الله في الأرض وتوحيد الله، فهو دائماً ثابت على هذه القاعدة.

ولكن الوسائل قد تتغير أثناء السير وأثناء النمو، فمنهج الإسلام الحركي يلتقي دائماً مع أهدافه، وينطلق منها، ويصبر عليها، منطلقاً من القواعد الثابتة إلى الأهداف الثابتة بوسائل قد تتغير، ولكنها لا تتناقض مع هذه القواعد ولا مع هذه الأهداف، ولا بد أن تكون الوسائل من جنس الأهداف في طهرها ونقائها كي تحقق هذه الأهداف وتصل بنا إليها. وعلى هذا.. فهذه السمة مهمة جداً؛ وهي ثبات القواعد والأهداف مع مرونة الوسائل وتطورها وتجددها وتغيرها مع النمو.

السمة الرابعة: الضبط التشريعي للعلاقات بين المجتمع الإسلامي وسائر المجتمعات

وذلك على النحو الملحوظ في ذلك التلخيص الجيد: **"وقيام ذلك الضبط على أساس أن الإسلام لله هو الأصل العالمي الذي على البشرية كلها أن تفيء إليه، أو أن تسالمه بجملتها فلا تقف لدعوته بأي حائل.."** هذا الضبط التشريعي يعني أن الشريعة تعطي أحكاماً تنظم حياة الجماعة المسلمة وعلاقاتها بالمجتمعات الجاهلية في كل مرحلة، بما لا يتناقض مع القواعد، ولا مع الأهداف، ولا مع قدرة الجماعة المسلمة، ولا مع قدرات المجتمعات الجاهلية أيضاً وإدراكه للحقيقة. فهناك ضبط تشريعي يجعل تعامل الجماعة المسلمة والمجتمع المسلم مع المجتمع الجاهلي باستمرار تعاملاً منضبطاً، لا يتناقض مع القواعد والأهداف، ولكنه في نفس الوقت يضبط إيقاع الحركة وإيقاع النتائج مع الأهداف النهائية ومع القواعد الأساسية. وهذا واضح جداً في السيرة النبوية كما سنعرض لأمثلة منها إن شاء الله.

فهذه السمات الأربعة سمات مهمة لكي نفهم منها طبيعة المنهج الحركي الإسلامي.

وقضية المرحلية قضية كبيرة، تحدث عنها علماؤنا الأقدمون، وتحدثوا عنها بوضوح شديد، حتى يتعجب الإنسان كيف خفيت على الناس في وقتنا الحاضر، ولكن يمكن أن نفسر خفاءها أو عدم إدراك الناس لها بأنهم قد قرروا أن الإسلام قد كمل، وأن الواقع واقع إسلامي، فهو مطالب إذاً بالنصوص النهائية؛ فلم يفكروا أبداً أنه يمكن أن يتراجعوا إلى الوراء، ولم يتصوروا أن هذا المجتمع الذي أمامهم سيعود إلى مرحلة قبل المرحلة النهائية. فلذلك لم يلتفتوا أبداً إلى قضية المرحلية، واعتبروا أن النظر إلى المرحلية هو تبديل وتغيير في النصوص النهائية لهذا الدين وفي أهداف هذا الدين. ولذلك حدث هذا الخلط في الجماعات المختلفة التي لم تدرك فكرة المرحلية.

تشخيص الواقع ودوره في تحديد المنهج

وقبل أن نتحدث عن التفاصيل؛ نقول إن المنهج الحركي الإسلامي، أو أن الجماعة المسلمة حينما تريد أن تختار منهجاً فأمامها ثلاثة اختيارات:

الاختيار الأول: وهو الاختيار الذي يترتب على تشخيص المجتمع بأنه مجتمع مسلم، وأن هذا المجتمع يحتاج لبعض الإصلاحات والإيقاظات ليقوم ويكمل المسيرة، أو يستكمل صورته الإسلامية الصحيحة. فالنظرة هذه تجعله يختار منهجاً بعيداً كل البعد عن علاج الواقع الموجود، لأن التشخيص الصحيح ليس كذلك، وواقع الناس ليس كذلك، وسيبدأ علاجهم بعلاج ليس هو -في واقع الأمر- العلاج الذي يعالج أوضاعهم التي هم فيها.

فهذا الداعية سيدعو الناس إلى إكمال ما نقص في حياتهم من تعاليم الدين بحسب تصوره، وهو يثبت لهم في ذات الوقت أنهم مسلمون وأنهم موحدون، وأنهم سيدخلون الجنة بتوحيدهم، لأن الإنسان الموحد يدخل الجنة، وحتى إن أذنب فهو خاضع للمشيئة -إن شاء الله غفر له وإن شاء عذبه- فحينما يدعوهم هذا الداعية إلى هذا فهو في الحقيقة لا يعالج حقيقة الداء، لأن حقيقة الداء أنهم ليسوا واقفين على قاعدة التوحيد الصحيح، ولذا فإن الترقيع لا يستطيع أن يسد الخلل الكبير الذي هم واقعون فيه، فهذا منهج وقعت فيه كثير من الجماعات الإسلامية التي ترى الواقع إسلامياً، والتي تتعامل مع الناس على أنهم مسلمون، بل هم يتعاملون مع الحكام كذلك على أنهم مسلمون.. ولذلك فلا بأس أن يتعاملوا مع الحكام، ولا بأس أن يدخلوا مؤسسات هذه الجاهلية، ولا مانع أن يتعاملوا مع الناس ويقبلوا منهم أي تقدم في طريق الطاعة، ويعدون كل ذلك مكسباً، ويعدون هذا تقدماً، ويظلون في هذه العملية باستمرار لا يتقدمون أبداً، ويشعرون في كثير من الأحيان بالإحباط، ولكن يُرجعون ذلك إلى قدر الله، أو يرجعون ذلك إلى أخطاء بسيطة لم يلاحظوها، أو يرجعون ذلك إلى ظلم الحكام وإلى انحراف الناس وعدم جديتهم. ولكنهم لا يراجعون أنفسهم أن يكون المنهج الذي انتهجوه أو التشخيص الذي شخصوه غير صحيح، وهذا يقع تحته جماعات كثيرة؛ أولها جماعة الإخوان، وجماعات أخرى جزئية كالجماعة الشرعية، وجماعة أنصار السنة، وكذلك بعض الجماعات الأخرى كجماعة المودودي، التي وإن كان تصورها النظري للعقيدة صحيحاً إلا أن أتباعها والقائمين عليها وقعوا في خداع لأنفسهم حينما انفصلت باكستان عن الهند، فتصوروا أنهم في دار إسلام فأخطأوا منهج التعامل مع الحكومات التي لم تطبق الإسلام يوماً ما.

هؤلاء جميعا يحدث لهم هذا الخطأ المستمر، وهو الاستمرار في دعوة الناس إلى جزئيات، وإلى التنازل عن كثير من نقاط المنهج من أجل التربيت على شهوات الناس وعلى ما يرضي الناس، فكلما وجدوا الناس لا يستجيبون يتنازلون هم قليلاً لعلهم يجذبون الناس. وهم يتنازلون أيضا مع الحكومات التي تقف لهم بالمرصاد لعل الحكومات تلين معهم، فيتنازلون عن بعض الأساسيات، لعل هذا التنازل يؤدي إلى مكاسب جديدة. فيدخلون الوزارات، ويدخلون المجالس النيابية والنقابات وغيرها وكل فترة يتنازلون تنازلاً جديداً، لعل هذا يجذب الناس إليهم، ويكف عنهم الأذى، أو يكسبهم بعض الثمرات السريعة. ويظلون هكذا.

والعجيب أن أعداء الإسلام الذين يرقبون الحركة الإسلامية يعرفون الحقيقة، ويكتبون عن جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات؛ أنها جماعات مستأنسة و"مدجنة"، وأنها جماعات قد تنازلت عن أهدافها الحقيقية، وأنها تحت الضربات المتوالية ومع طول الأمد تنازلت عن كثير من أهدافها، ولذلك لا يجدون لها خطراً حقيقياً ولا كبيراً.

الاختيار الثاني: وهو أن ينظر الداعية، أو ينظر أصحاب هذا التوجه إلى الواقع على أنه واقع غير إسلامي.. ولكنهم يتناقضون في الفصل بين الحكام وبين المحكومين، فيرون الحكام بنظرة صحيحة -وهي أنهم ليسوا على شيء- وينظرون إلى الشعوب وإلى الرعية على أنهم معذورون بجهلهم، أو أنهم مسلمون بأي سبب من الأسباب، فنجد أن هذا التفريق بين مصادماتهم مع الحكام وبين تعاملهم مع الناس يوقعهم في خلل غير متناسق، حين يصطدمون في بعض الأحيان بالسلطة، ويؤدي هذا إلى ضحايا من الناس، فيعتبرون أنفسهم مخطئين، أو أنهم يتورعون حينما يصطدمون بالناس فيوقعون أنفسهم في مصائب كبيرة.

وفي الوقت نفسه يرون أن المجتمع لا بد أن يخضع للنصوص النهائية، فيصرون على مواجهة المجتمع بالنصوص النهائية؛ وهي القتال والسلاح وعدم قبول أي حل أقل من النصوص النهائية. وهؤلاء يحملون أنفسهم ما لا يطيقون، ويحملون الناس ما لا يطيقون، ويسيئون إلى الفكرة الإسلامية، لأنهم لم يعطوا للناس فرصة لرؤية الإسلام كما ينبغي أن يكون.. كما سيتضح لنا بعد قليل إن شاء الله.

الاختيار الثالث: الاختيار الصحيح..

وهو تشخيص الواقع بصورة صحيحة مفادها أن هذا الواقع بجملته حكاماً ومحكومين ومؤسسات وقيماً وقوانين ولوائح كلها لا صلة لها بالإسلام، وأن هذه المجتمعات مدعوة للإسلام من جديد، وأننا ينبغي أن نبدأ معها كما بدأ الأنبياء مع مجتمعاتهم، وبالذات كما بدأ رسول الله ﷺ مع المجتمعات التي التقى بها.

هذا التصور الصحيح يعطي للجماعة المسلمة فرصاً كثيرة جداً من البداية الصحيحة، ومن التتبع الصحيح للمراحل، والتنقل بينها بصورة منطقية تتناسب مع طاقة الجماعة المسلمة، وتتناسب مع طبيعة الفكرة الإسلامية، وتتناسب مع الواقع الجاهلي أيضاً؛ سواء كان لرؤيته للحقيقة، أو لمواجهته بالصورة التي تتناسب معه. ففي كل مرحلة تواجه الجماعة المسلمة هذا الواقع الجاهلي بصورة تتناسب مع قدراتها ومع استعداد ذلك المجتمع لتلقي الحقيقة.

مفهوم وأهمية ودور الجهاد الصحيح في الإسلام

يقول الأستاذ سيد: **"والمهزومون روحياً وعقلياً ممن يكتبون عن "الجهاد في الإسلام" ليدفعوا عن الإسلام هذا "الاتهام" يخلطون بين منهج هذا الدين في النص على استنكار الإكراه على العقيدة، وبين منهجه في تحطيم القوى السياسية المادية التي تحول بين الناس وبينه، والتي تعبِّد الناس للناس، وتمنعهم من العبودية لله.. وهما أمران لا علاقة بينهما ولا مجال للالتباس فيهما.. ومن أجل هذا التخليط، وقبل ذلك من أجل تلك الهزيمة! يحاولون أن يحصروا الجهاد في الإسلام فيما يسمونه اليوم: "الحرب الدفاعية").."**

الجهاد -كما يُقَرَر- شيء آخر غير الحرب الدفاعية -والتي تعني أن الإنسان يدافع إذا تعرض لعدم الأمن في أرضه أو في واقعه- هذا هو التصور الدفاعي. وكما يقول الأستاذ سيد أن هذا غير صحيح. ويقول؛ وإن كان لا بد أن نستعمل كلمة الدفاع فلا بد أن نوسع مفهوم كلمة الدفاع ليكون الدفاع عن الإنسان ذاته؛ نوع الإنسان، أمام من يريدون أن يسحقوا هذا الإنسان، والدفاع عن دين الله الذي يريد هؤلاء أن يطمسوه، والدفاع عن ألوهية الله التي يريد هؤلاء الناس أن يغتصبوها. وهذا يؤدي بالضرورة في النهاية أن يظل الجهاد كما قرره الإسلام؛ جهاد ماضٍ إلى يوم القيامة حتى يكون الدين كله لله.

وأنا أرى أننا لسنا مضطرين أن نستعمل كلمة الدفاع، فالجهاد كما يقول الأستاذ سيد يفهم على ضوء هذه الحقيقة؛ **"إن هذا الدين إعلان عام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من العبودية للعباد -ومن العبودية لهواه أيضاً وهي من العبودية للعباد- وذلك بإعلان ألوهية الله وحده -سبحانه- وربوبيته للعالمين..! إن إعلان ربوبية الله وحده للعالمين معناها: الثورة الشاملة على حاكمية البشر في كل صورها وأشكالها وأنظمتها وأوضاعها، والتمرد الكامل على كل وضع في أرجاء الأرض، الحكم فيه للبشر بصورة من الصور.. أو بتعبير آخر مرادف: الألوهية فيه للبشر في صورة من الصور.. ذلك أن الحكم الذي مَرَدّ الأمر**

فيه إلى البشر، ومصدر السلطات فيه هم البشر، هو تأليه للبشر، يجعل بعضهم لبعض أرباباً من دون الله. إن هذا الإعلان معناه انتزاع سلطان الله المغتصب ورده إلى الله، وطرد المغتصبين له، الذين يحكمون الناس بشرائع من عند أنفسهم، فيقـومون منهم مقام الأرباب ويقـوم الناس منهم مكان العبيد.. إن معناه تحطيم مملكة البشر لإقامة مملكة الله في الأرض، أو بالتعبير القرآني الكريم:

﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ [يوسف: ٤٠].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤]".

فالجهاد في سبيل الله هو إقامة مملكة الله في الأرض، فيكون الله سبحانه وتعالى -كما هو في الحقيقة- إلهاً في الأرض وإلهاً في السماء. وكلمة مملكة الله في الأرض أو الحكم الإلهي قد تتلبس بها بعض الصور الخاطئة التي حدثت في تاريخ البشرية. ولذلك يقول الأستاذ سيد **"ومملكة الله في الأرض لا تقوم بأن يتولى الحاكمية في الأرض رجال بأعيانهم -هم رجال الدين- كما كان الأمر في سلطان الكنيسة، ولا رجال ينطقون باسم الآلهة، كما كان الحال فيما يعرف باسم "الثيوقراطية" أو الحكم الإلهي المقدس!! ولكنها تقوم بأن تكون شريعة الله هي الحاكمة، وأن يكون مرد الأمر إلى الله وفق ما قرره من شريعة مبينة."**

فلا شك أن الذين يضيقون بكلمة الحكم الإلهي، أو بأن يكون الله هو الحاكم يتصورون بعض التصورات الخاطئة التي حدثت في بعض المجتمعات نتيجة للانحراف البشري الذي مر بهم. ففي وقت الكنيسة وسلطانها، كان رجال الدين هم الذين يحكمون باسم الرب، ويعتبرون هذا هو حكم الله سبحانه وتعالى.. بينما في الحقيقة هو حكم رجال الدين وليس حكم الله، لأنهم كانوا يعطون لأنفسهم حق التشريع وحق التبديل. وأدى ذلك إلى ما نعرفه من الفساد في حياة أوروبا، والثورة على الدين، أيا كان ذلك الدين.. وبالمفهوم الثيوقراطي -أي الحكم الإلهي المقدس- كان الحكام ينطقون باسم الآلهة؛ كما كان يحدث في حكم الفراعنة، أو حكم الفرس، أو بعض الأنظمة الأخرى كالهنود وغيرهم.. فكان الكهنة والسدنة هم الذين يتحدثون باسم الإله، أو كان الحاكم يعطي لنفسه حق أن يتحدث باسم الإله، فكان هذا أيضا حكما خاطئا، ليس هو حكم الله في الحقيقة.

ولكن الإسلام يرى أن الحكم الإلهي يتحقق حينما تكون شريعة الله هي الحاكمة، ويكون مَرَدْ الحكم لله، مع الاعتقاد بأن الله هو الإله وحده، لا شريك له في صفاته وفي أسمائه وفي حقوقه وفي أفعاله.

وفي ظل هذا المفهوم الصحيح يُطاع الخليفة أو أمير المؤمنين ما أطاع الله في أحكامه يستوي في ذلك مع باقي الناس فإذا ما عصى الله فلا طاعة له على أحد من الناس. وبهذا المفهوم الواضح الجلي لا يبقى لما يشيعه العلمانيون من تسلط الخلفاء والحكام وإضفاء ما يصدر عن أهوائهم صفة القداسة الإلهية فلا يناقشون ولا يحاسبون لا يبقى لهذه المقولة أي نصيب من الحقيقة والواقع الإسلامي كما تمثل في عصر الراشدين رضوان الله عليهم والذي لا ينكره العلمانيون أنفسهم شاهد على هذه الحقيقة.

هذه الحقيقة.. حقيقة **"وقيام مملكة الله في الأرض، وإزالة مملكة البشر، وانتزاع السلطان من أيدي مغتصبيه من العباد ورده إلى الله وحده.. وسيادة الشريعة الإلهية وحدها وإلغاء القوانين البشرية.. كل أولئك لا يتم بمجرد التبليغ والبيان، لأن المتسلطين على رقاب العباد، والمغتصبين لسلطان الله في الأرض، لا يسلمون في سلطانهم بمجرد التبليغ والبيان، وإلا فما كان أيسر عمل الرسل في إقرار دين الله في الأرض! وهذا عكس ما عرفه تاريخ الرسل -صلوات الله وسلامه عليهم- وتاريخ هذا الدين على مر الأجيال!"**

فالحقيقة أن الذين يتصورون أن على الدعاة أن يبينوا وأن يبلغوا فقط، وألا يستعملوا القوة أبدا في إقرار الحق، وأن يلتزموا بالنص الذي يستندون إليه ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥].. هؤلاء يتجاهلون أولاً تاريخ الإسلام كله، لأن الرسول ﷺ جاهد بالسلاح، ولم يقف عند الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة كما فهموها، لأن الحكمة قد تكون تارة بالبلاغ والبيان، وتارة قد تكون بالسلاح. فصورة الحكمة هم قد قلصوها بحسب ما يشتهون. والموعظة الحسنة أيضا قد لا تكون بليغة إلا بالسلاح، وإلا بالقتال. وحتى لو فهموها كما يريدون فهي كانت مرحلة من مراحل الدعوة، وليست هي المرحلة النهائية.

والواقع أن الجاهلية هي مؤسسة متكاملة؛ لها فلسفتها وتصورها، ولها أيضا نظامها، ولها أيضا قوتها التي تحمي بها نفسها، وعندها من الإصرار على ما هي عليه، بحيث أنها لا تفرط فيه ولا تتنازل عنه لكل من يطالبها بالتنازل عنه بسهولة.

هذا الواقع الجاهلي لا يمكن أن يقابل بالبيان فقط. ويقول الأستاذ المودودي في كتاب له -ينبغي أن تقرؤوه جميعا- وهو كتاب "الحكومة الإسلامية" وكتاب "الدين والدولة".. يقول: هذا سخرية وعبث أن يأتي أحد ليدعو إلى فكرة، وينزل نظاما وقوانين، ثم يقول للناس: اسمعوا ثم لا عليكم إذا لم تنفذوا، فأنتم ستظلون راضين بهذه الفكرة وتعتبرون مؤمنين بها، وأنكم ستجازون بالجنة وبكل مكافأة حتى ولو لم تطبقوا هذه القوانين، ولم تعطوا لهذا الإله حقه.. فهذا يكون عبثا وتناقضا يتعالى الله سبحانه وتعالى عنه، ويتعالى كتاب الله عنه. وإنما الأمر الطبيعي أن الإنسان إذا اقتنع بالفكرة فعليه أن يحاول أن يطبقها، وهو ولا بد سيجد أمامه عقبات لا بد أن يزيلها، ثم إن الواقع الموجود أمامه الذي لا يقبل هذه الفكرة الجديدة، وهذا الحكم الذي يريد فرضه لا بد أن يدخل معه في صراع. فالتدافع سنة طبيعية، وإنه من السخرية أن نطالب دين الله بما لا يطالب البشر به أنفسهم حينما يريدون أن يقيموا لأنفسهم نظاما. فأي صاحب ثورة جديدة لا بد أن يلغي الوجود الآخر لكي يقوم هو، وإلا فإنه لا يمكن أن يتواجدا معا في وقت واحد."

فإذا كان البشر الذين لا يملكون حق تعبيد الناس لهم يعطون لأنفسهم حق الصدام وحق القتال حينما يرفض الناس أفكارهم، ويقيمونها بالقوة وهم ليسوا أهلا لها، ولا لهم حق فيها، بينما يحرمون الإسلام الذي جاء ليعطي صاحب الحق حقه أن يفعل مثلما يفعلون.. فلا شك أن الذين يُدعَون إلى هذا التصور -التصور المسالم الذي يقف عند البلاغ والبيان فقط- هؤلاء خائنون للحق، وهؤلاء مضللون أيضا، وهؤلاء مجرمون.. لأنهم يعرفون أن الإسلام لم يكن يوما ما كذلك حتى يطالبوا الحركات الإسلامية الآن أن تقف عند نقطة البيان فقط.

يقول الأستاذ سيد **"إن هذا الإعلان العام لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله، بإعلان ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، لم يكن إعلاناً نظرياً فلسفياً سلبياً.. إنما كان إعلاناً حركياً واقعياً إيجابياً.. إعلاناً يراد له التحقيق العملي في صورة نظام يحكم البشر بشريعة الله، ويخرجهم بالفعل من العبودية للعباد إلى العبودية لله وحده بلا**

شريك.. ومن ثم لم يكن بد من أن يتخذ شكل "الحركة" إلى جانب شكل "البيان".. ذلك ليواجه "الواقع" البشري بكل جوانبه بوسائل مكافئة لكل جوانبه.

والواقع الإنساني، أمس واليوم وغداً، يواجه هذا الدين -بوصفه إعلاناً عاماً لتحرير "الإنسان" في "الأرض" من كل سلطان غير سلطان الله- بعقبات اعتقادية تصورية، وعقبات مادية واقعية.. وعقبات سياسية واجتماعية واقتصادية وعنصرية وطبقية، إلى جانب عقبات العقائد المنحرفة والتصورات الباطلة.. وتختلط هذه بتلك وتتفاعل معها بصورة معقدة شديدة التعقيد.

وإذا كان "البيان" يواجه العقائد والتصورات، فإن "الحركة" تواجه العقبات المادية الأخرى -وفي مقدمتها السلطان السياسي القائم على العوامل الاعتقادية التصورية والعنصرية والطبقية والاجتماعية والاقتصادية المعقدة المتشابكة- وهما معاً -البيان والحركة- يواجهان "الواقع البشري" بجملته، بوسائل مكافئة لكل مكوناته.. وهما معاً لا بد منهما لانطلاق حركة التحرير للإنسان في الأرض.. "الإنسان" كله في "الأرض" كلها.. وهذه نقطة هامة لا بد من تقريرها مرة أخرى!

إن هذا الدين ليس إعلاناً لتحرير الإنسان العربي! وليس رسالة خاصة بالعرب! إن موضوعه هو "الإنسان".. نوع "الإنسان".. ومجاله هو "الأرض".. كل "الأرض". إن الله -سبحانه- ليس رباً للعرب وحدهم ولا حتى لمن يعتنقون العقيدة الإسلامية وحدهم.. إن الله هو "رب العالمين".. وهذا الدين يريد أن يرد "العالمين" إلى ربهم، وأن ينتزعهم من العبودية لغيره. والعبودية الكبرى -في نظر الإسلام- هي خضوع البشر لأحكام يشرعها لهم ناس من البشر.. وهذه هي "العبادة" التي يقرر أنها لا تكون إلا لله، وأن من يتوجه بها لغير الله يخرج من دين الله مهما ادعى أنه في هذا الدين. ولقد نص رسول الله ﷺ على أن "الاتِّباع" في الشريعة والحكم هو "العبادة" التي صار بها اليهود والنصارى "مشركين" مخالفين لما أمروا به من "عبادة" الله وحده.."

وذلك حينما قرر رسول الله ﷺ أن النصارى واليهود اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حينما تلقوا منهم الشرائع، وحينما حرموا لهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم، فقرر أن هذه عبادتهم إياهم وهذا نص واضح جلي لا يقبل التأويل.

فإذن هذا هو التصور الإسلامي للعبودية؛ أنه حينما يكون المشرعون هم البشر، وحينما لا يكون الحاكم هو الله.. فهذه هي العبودية الكبرى. لأن أي علاقة بالله بعيدة عن الخضوع لشرعه لا تستوعب حياة الإنسان كلها، وحتى لو استوعبت جزءا من حياة الإنسان لا تكون عبودية لله.. وإنما تكون عبودية لذلك الذي يستوعب حياة الإنسان كليا أو جزئيا.

لكن الشريعة بوصفها التي تنظم حياة الإنسان في كل أحواله، هي التي تغطي حاجات الإنسان كلها، لكن حينما يتصور الناس العبادة أنها نسك وشعائر فقط! فكم تأخذ هذه الشعائر في حياة الناس؟، وحينما يتصورونها أحوالا شخصية.. كم تأخذ هذه من مساحة الحياة عند الناس؟ مساحات صغيرة فقط.. وهذه المساحات الصغيرة -على صغرها- تبهت وتضيع حينما يصبح التشريع الأعظم بعيدا عن شريعة الله. فالعبودية الحقيقية تكمن في أن يتلقى الناس كل شيء في حياتهم من الله. وحينما تكون شريعة الله بكل شمولها وكل هيمنتها وكل استغراقها لحياة الإنسان الصغيرة والكبيرة -حينما يكون الأمر كذلك- يكون الناس في عبودية الله.. وإذا كانت الشريعة التي تحكمهم ليست هي شريعة الله، مهما أخذوا نتفاً من صور التعبد أو التنسك أو التنظيم في حياتهم فإن هذا يبعدهم ابتداء عن العبودية لله.

وأمر آخر أشد خطرا، وهو أن الله عز وجل غني عن العالمين، فإما أن يخضع الناس لشريعة الله كلها فيكونون عبيدا لله، وإما ألا يأخذوها كلها. وساعتها لا يكونون عبيدا لله. فالعبودية لله لا تكون إلا عبودية التوحيد؛ توحيد القوامة والدينونة لله وحده، فيُؤخذ من الله ولا يُؤخذ من غيره، حتى ولو كان هذا الذي يؤخذ من غيره قليلا أو صغيرا.. فالقضية هي تعبيد الإنسان نفسه لله، بمعنى الخضوع الكامل المطلق لله عز وجل، بأن يتلقى حياته كلها من الله، ولا يتلقى شيئا -ولو جزء بسيطا- من غير الله عز وجل.

فالعبودية لا بد أن تكون شاملة، وأن تكون مستغرقة كاملة في شريعة الله وحدها دون أن يتلقى الناس في هذا من غير الله في صغيرة ولا كبيرة.

التوافق بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض

"ومن ثم لم يكن بد للإسلام أن ينطلق في "الأرض" لإزالة "الواقع" المخالف لذلك الإعلان العام.. بالبيان وبالحركة مجتمعين.. وأن يوجه الضربات للقوى السياسية التي تعبِّد الناس لغير الله.. -أي تحكمهم بغير شريعة الله وسلطانه- والتي تحول بينهم وبين الاستماع إلى "البيان" واعتناق "العقيدة" بحرية لا يتعرض لها السلطان. ثم لكي يقيم نظاماً اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً يسمح لحركة التحرر بالانطلاق الفعلي -بعد إزالة القوة المسيطرة- سواء كانت سياسية بحتة، أو متلبسة بالعنصرية، أو الطبقية داخل العنصر الواحد!

إنه لم يكن من قصد الإسلام قط أن يكره الناس على اعتناق عقيدته.. ولكن الإسلام ليس مجرد "عقيدة"."

فليس هناك تناقض بين تقرير الله أنه لا إكراه في الدين، وبين تقرير الله أن الإسلام يجب أن يعم الأرض حتى يخضع الناس جميعا لسلطان الله في الأرض كلها، أي يخضعون لشريعته.. لأن الإسلام ليس عقيدة فقط.. الإسلام نظام مع عقيدة، فإذا رضي الناس بالعقيدة وبالنظام كانوا مسلمين، وكانوا ناجين، وكانوا عابدين لله.. فإذا لم يرضوا بالعقيدة فعليهم أن يخضعوا للنظام، لأن الأرض هي مملكة الله، والله هو صاحبها، ومن حقه وحده أن يحكمها بقانونه.. فالذين لا يرضون به رباً عليهم أن يخضوا لنظامه.

وهذا ولا شك نوع من التعامل الرحيم بالبشر، وإن كان يؤجلهم إلى موقف أصعب. فالإسلام لا يجبر الناس على الاعتقاد، ليس لأن الله ليس من حقه أن يجبرهم على الاعتقاد، فهو من حقه أن يجبرهم على الاعتقاد، وكان من الممكن أن يخيرهم بين الإسلام وبين القتل، وهذا من حقه سبحانه وتعالى، لأنه خالق الخلق، والكون مُلْكُه، ولكن لأن الله يريد مسلمين.. فيكون من العبث أن يجبر الناس على اعتناق عقيدة لا يريدونها، لأنهم في هذه الحالة سيكونون منافقين وليسوا مؤمنين، لذلك لم يجبرهم على اعتناق الإسلام بل ترك ذلك لاختيارهم، حتى يظل المسلم مسلما صدقاً لا نفاقاً، وعلى من اختار سبيل الكفر أن يعلم أنه وإن نجا من العقوبة في الدنيا فإن يوماً ينتظره هناك ليلقى جزاء اختياره الظالم، وهو يوم بعده الخلود في نار جهنم التي أعدت للكافرين.

فالإسلام لم يكره الناس على العقيدة، ولكنه يجبرهم على الخضوع لنظامه. وليس في هذا ظلم لهم، وليس في هذا إكراه ولا استبداد عليهم.. بل العكس هو الحقيقة؛ أن خضوع الناس للنظام الإسلامي؛ سواء كانوا مؤمنين به أو لم يكونوا مؤمنين به هو رحمة للجميع،

لأن حكم الله هو الرحمة المهداة للبشرية، وسيجني ثمارها من يعيشون في حكم الله؛ سواء كانوا مؤمنين به أو غير مؤمنين.. فهو إذن رحمة أخرى بالبشر حينما يجبر الناس على التحاكم إليه لكي يسعدهم، رغم أنهم رفضوا ألوهيته.. ولكنهم لا بد أن يخضعوا لحكمه سبحانه وتعالى، لأن هذه هي الصورة التي لا يجوز أن يكون الأمر غيرها.

لذلك إذا كان لم يتحقق في واقع الأمر في التاريخ البشري أن تصبح الأرض كلها خاضعة لشرع الله -حتى في أوج هيمنة الإسلام وعلو دولته وسعتها وانتشارها ظلت أقسام من الأرض لم تخضع لشرع الله، حيث ظلت أجزاء من أوروبا، وأجزاء من أفريقيا، وأجزاء من آسيا، وأمريكا التي لم تكن قد أُكتشفت بعد.. كل هذه المناطق ظلت بعيدة عن حكم الله- أقول: إذا لم يتحقق خضوع الأرض كلها لشرع الله فإن ذلك سيقع لامحالة قبل يوم القيامة على يد المسيح عليه السلام حينما يأتي ليحكم الأرض كلها بحكم الله، ويكون الناس جميعا تحت حكم الله، لتتحقق الصورة الناصعة والصورة المكتملة في الأرض قبل أن يعود الناس إلى ربهم يوم القيامة. فإذا لم تتحقق على أيدي البشر من خلال جهادهم، فسوف تتحقق بآية من آيات الله قبل أن تقوم الساعة.. حينما يأتي المسيح ليحكم الأرض بحكم الله، وحينذاك سيجد الناس بركات هذا الحكم كاملة، وتتبدى لهم تماما، لكيلا تغلق صحيفة الأرض قبل أن تتحقق الصورة الناصعة، لتكون حجة على الناس.. فلو أنهم كانوا رضوا بحكم الله لعاشوا كما سيعيش الناس في ظل حكم المسيح المهيمن المطلق، حتى يلتقي الأسد بأي حيوان فلا يؤذيه، ويحثو الناس المال حثوا ولا يجدون من يطلبه، وتخرج الأرض خيراتها.. وهكذا سيعيشون في نعيم مطلق وفي أمن مطلق.

لكن لا بد أن يظل هذا الهدف -هدف خضوع الأرض كلها لشرع الله وحكمه- قائما باستمرار في حس الذين يؤمنون بالله، يسعون إليه ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. سواء تم أم لم يتم، ولا يقصرون فيه، مهما بدى لهم من العقبات، وعليهم أن يقيموا الشهادة لهذا الدين حتى نهاية الحياة.. فكما يقول الأستاذ سيد: إن الإسلام ليس مجرد عقيدة، هو نظام لله لا بد أن يقوم.. ولذلك فإنه ليس من الممكن أن يقوم بالبيان فقط، ثم يترك الناس بعد ذلك في عمايتهم.. عليه أن يدعوهم للعقيدة، وأن يقيم نظامه، وأن يجبر الناس على هذا النظام ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].. وكما يقول.. **"إن مدلول "الدين" أشمل من مدلول "العقيدة" إن الدين هو المنهج والنظام الذي يحكم الحياة، وهو في الإسلام يعتمد على العقيدة، ولكنه في عمومه أشمل من العقيدة.. وفي الإسلام يمكن أن تخضع جماعات متنوعة لمنهجه العام الذي يقوم على أساس العبودية لله وحده ولو لم يعتنق بعض هذه الجماعات عقيدة الإسلام."**.

الإسلام لا يقوم بالبيان والبلاغ فقط

فإذا أدرك الناس الدين بهذا المفهوم.. فإنهم سيدركون معه **"حتمية الانطلاق الحركي للإسلام في صورة الجهاد بالسيف -إلى جانب الجهاد بالبيان- ويدركون أن ذلك لم يكن حركة دفاعية -بالمعنى الضيق الذي يفهم اليوم من اصطلاح "الحرب الدفاعية" كما يريد المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام هجوم المستشرقين الماكر أن يصوروا حركة الجهاد في الإسلام- إنما كان حركة اندفاع وانطلاق لتحرير "الإنسان" في "الأرض".. بوسائل مكافئة لكل جوانب الواقع البشري، وفي مراحل محددة لكل مرحلة منها وسائلها المتجددة."**.. ويقول **"وإذا لم يكن بد أن نسمي حركة الإسلام الجهادية حركة دفاعية، فلا بد أن نغير مفهوم كلمة "دفاع"، ونعتبره "دفاعاً عن الإنسان" ذاته، ضد جميع العوامل التي تقيد حريته**

وتعوق تحرره.." فهو دفاع -إذن- عن حرية الإنسان، وحينما نريد أن نحرر الإنسان فإنه -في الحقيقة- لن يكون حرا إلا حينما يكون عبدا لله وحده، وحينما يكون تحت شريعة الله وحدها.. وبذلك نرجع مرة أخرى إلى أننا لا بد أن نزيل كل النظم والضغوط التي تستعبد الإنسان وتذله وتنتقص حريته ولا تجعله حرا. فإذا كان لا بد أن نقول إن الحركة بالإسلام حركة دفاعية فهو دفاع عن حرية الإنسان.. **"وبهذا التوسع في مفهوم كلمة "الدفاع" نستطيع أن نواجه حقيقة بواعث الانطلاق الإسلامي في "الأرض" بالجهاد، ونواجه طبيعة الإسلام ذاتها، وهي أنه إعلان عام لتحرير الإنسان من العبودية للعباد، وتقرير ألوهية الله وحده وربوبيته للعالمين، وتحطيم مملكة الهوى البشري في الأرض، وإقامة مملكة الشريعة الإلهية في عالم الإنسان.."**

ويقول **"أما محاولة إيجاد مبررات دفاعية للجهاد الإسلامي بالمعنى الضيق للمفهوم العصري للحرب الدفاعية، ومحاولة البحث عن أسانيد لإثبات أن وقائع الجهاد الإسلامي كانت لمجرد صد العدوان من القوى المجاورة على "الوطن الإسلامي" -وهو في عرف بعضهم جزيرة العرب- فهي محاولة تنم عن قلة إدراك لطبيعة هذا الدين، ولطبيعة الدور الذي جاء ليقوم به في الأرض. كما أنها تشي بالهزيمة أمام ضغط الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي."!**

ويقول **"ترى لو كان أبو بكر وعمر وعثمان -رضي الله عنهم- قد أَمِنوا عدوان الروم والفرس على الجزيرة أكانوا يقعدون إذن عن دفع المد الإسلامي إلى أطراف الأرض؟ وكيف كانوا يدفعون هذا المد، وأمام الدعوة تلك العقبات المادية من أنظمة الدولة السياسية، وأنظمة المجتمع العنصرية، والطبقية، والاقتصادية الناشئة من الاعتبارات العنصرية والطبقية، والتي تحميها القوة المادية للدولة كذلك؟!**

إنها سذاجة أن يتصور الإنسان دعوة تعلن تحرير "الإنسان".. نوع الإنسان.. في "الأرض".. كل الأرض.. ثم تقف أمام هذه العقبات تجاهدها باللسان والبيان! إنها تجاهد باللسان والبيان حينما يخلى بينها وبين الأفراد، تخاطبهم بحرية، وهم مطلقو السراح من جميع تلك المؤثرات.. فهنا "لا إكراه في الدين".. أما حين توجد تلك العقبات والمؤثرات المادية، فلا بد من إزالتها أولاً بالقوة، للتمكن من مخاطبة قلب الإنسان وعقله، وهو طليق من هذه الأغلال!"

وبذلك يصبح الجهاد بمعنى القتال ضرورة للدعوة، وليس مجرد اجتهاد من المسلمين.. هو ضرورة للدعوة إذا كان الدعاة جادين في أن يقيموا الإسلام.. فالإسلام لم يقم بالبيان والبلاغ فقط أول مرة ولا يمكن أن يقوم تارة أخرى بالبيان والبلاغ فقط حينما يواجه مؤسسة تقوم على القوة وعلى الصراع المادي، لا بد إذن أن يدخل معها في صراع مادي ولا يكتفي بالبيان النظري، بل لا بد أن يكون له جهاده، وأن يغير ويقتلع هذا الواقع المادي ليقيم بدله بناء الإسلام. وهذا الأمر يتطلب أن يكون للإسلام قاعدة ينطلق منها لكي يبدأ جهاده أمام أعدائه.. ولذا فإنه لا بد أن يقيم دار الإسلام في مواجهة دار الكفر أو دار الحرب، وينطلق من قاعدته هذه ليقتنص أو ليقلص من مساحة دار الكفر، حتى يكون الدين كله لله.

والسلم الذي يريده الإسلام هو ذلك السلم القائم على الإيمان، والقائم على العدل، والذي لا يتحقق إلا تحت شريعة الله عز وجل.. وهو يدعو الناس أن يدخلوا في السلم كافة بهذا المعنى الواضح، وليس ذلك السلم الرخيص الذي يريده الآخرون لهذا الدين.. فهذا ليس سلما في الحقيقة، لأنه عدوان على الإسلام، وعدوان على الإنسان أيضا.

لكن السلم الذي يدعو إليه الإسلام هو ذلك السلم الذي يقوم على العدل وعلى الإيمان وعلى الرحمة التي يكفلها النظام الإسلامي وحده في الأرض.. وليس النظام الجاهلي.

"ولقد كف الله المسلمين عن القتال في مكة، وفي أول العهد بالهجرة إلى المدينة.. وقيل للمسلمين: ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ [النساء: ٧٧].. ثم أذن لهم فيه، فقيل لهم: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۞ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [الحج: ٣٩-٤١].. ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقيل لهم: ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٠].. ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة فقيل لهم: ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦].. وقيل لهم: ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]. فكان القتال -كما يقول الإمام ابن القيم- "محرماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين"..

إن جدِّية النصوص القرآنية الواردة في الجهاد، وجدية الأحاديث النبوية التي تحض عليه، وجدية الوقائع الجهادية في صدر الإسلام، وعلى مدى طويل من تاريخه.. إن هذه الجدية الواضحة تمنع أن يجول في النفس ذلك التفسير الذي يحاوله المهزومون أمام ضغط الواقع الحاضر وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر على الجهاد الإسلامي!"

ولا شك أن هذا ينبع من العلم بالحقيقة، ومن الاعتزاز بالحقيقة، لأن الإنسان حينما يعلم مقام الألوهية وحقها في أن تعبِّد الناس لها لا يأتي في خاطره أبدا أن يستنكف أو أن يخجل أو أن يتورع في أن يزيل كل العقبات وبأي طريقة من أمام الحق الذي يؤمن به. فإذا كان الإسلام في تاريخه بهذه الصورة؛ أن القتال كان محرما، ثم مأذونا به، ثم واجبا لمن قاتل المسلمين، ثم واجبا للانسياح في الأرض وإزاحة كل الطواغيت من على الأرض.. فهذه الصورة من التدرج الجدي لا يدع لأي إنسان يعلم هذه الحقيقة أن يدور في نفسه أي تصور آخر غير التصور الصحيح.. **"ومن ذا الذي يسمع قول الله سبحانه في هذا الشأن وقول رسوله ﷺ، ويتابع وقائع الجهاد الإسلامي، ثم يظنه شأناً عارضاً مقيداً بملابسات تذهب وتجيء، ويقف عند حدود الدفاع لتأمين الحدود؟!**

لقد بين الله للمؤمنين في أول ما نزل من الآيات التي أذن لهم فيها بالقتال أن الشأن الدائم الأصيل في طبيعة هذه الحياة الدنيا أن يدفع الناس بعضهم ببعض، لدفع الفساد عن الأرض: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۞ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [الحج: ٣٩-٤٠].

وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة.."

وهذا التدافع ليس جديدا.. هو قديم منذ أن وقف الشيطان هذا الموقف من آدم.. ومنذ أن قال الله عز وجل لآدم ﴿ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ [طه: ١١٧].. هذا الصراع بدأ منذ هذه اللحظة.. وسيظل إلى أن تفنى الأرض.. صراع

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.. بين عباد الله وبين عباد الشيطان.. فلا تصلح الأرض إلا بهذا الصراع، ولو سكت فريق لن يسكت الفريق الآخر.. ولو سكت المؤمنون لن تسكت الشياطين وأعوان الشياطين. فلكيلا يتزحزح المؤمن عن موقعه لا بد أن يدفع الآخر بعيدا عنه، ويصده.. فهذا التدافع من مصلحة الكيان الإنساني، وهو أيضا الذي يجعل جذوة الإيمان دائما حية ومتوهجة في نفوس أصحابها حينما يحسون دائما أنهم باستمرار في حالة دفاع، بل هجوم مستمر على الشيطان وعلى مواقع الشيطان، لكي يظل الدين كله لله.

"وإذن فهو الشأن الدائم لا الحالة العارضة. الشأن الدائم ألا يتعايش الحق والباطل في هذه الأرض. وأنه متى قام الإسلام بإعلانه العام لإقامة ربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من العبودية للعباد، رماه المغتصبون لسلطان الله في الأرض ولم يسالموه قط، وانطلق هو كذلك يدمر عليهم ليخرج الناس من سلطانهم ويدفع عن "الإنسان" في "الأرض" ذلك السلطان الغاصب.. حال دائمة لا يقف معها الانطلاق الجهادي التحريري حتى يكون الدين كله لله."

فإذا تحقق ذلك يظل الإنسان في حالة استنفار دائم، حتى لا يستغل الشيطان وأعداء الإنسان فرصة الغفلة فينقضون على الإسلام مرة أخرة. فحتى لو تحقق أن يكون الدين كله لله في الأرض سيظل الناس في حالة رباط دائم ليدافعوا عن هذا الدين إلى يوم القيامة.

"إن الكف عن القتال في مكة لم يكن إلا مجرد مرحلة في خطة طويلة. كذلك كان الأمر أول العهد بالهجرة. والذي بعث الجماعة المسلمة في المدينة بعد الفترة الأولى للانطلاق لم يكن مجرد تأمين المدينة.. هذا هدف أولي لا بد منه، ولكنه ليس الهدف الأخير.. إنه هدف يضمن وسيلة الانطلاق، ويؤمن قاعدة الانطلاق.. الانطلاق لتحرير "الإنسان"، ولإزالة العقبات التي تمنع "الإنسان" ذاته من الانطلاق!"

فكف الأيدي هو مرحلة، والدعوة بالموعظة هي مرحلة، والعفو والصفح هو مرحلة.. وتأتي بعدها النصوص النهائية للانطلاق النهائي لسحق الجاهلية كلها، ولإخضاع الأرض كلها، لتكون خاضعة لشرع الله.. وهي حرة -بعد ذلك- في أن تقتنع وتعتنق دين الله عز وجل أو لا تعتنقه.

الحكمة من كف الأيدي في مكة

ويقول هنا أن كف الأيدي في مكة كانت له حِكَمٌ كثيرة يلخصها بسرعة:

ربما أن الفترة المكية كانت فترة تربية وإعداد، ومن أهداف التربية والإعداد في مثل هذه البيئة أن تحتاج إلى وقت هادئ لكي يُعَد ويُربَى الناس فيه، وليخلصوا من جاهليتهم التي كانوا عليها. فكف الأيدي يسمح للناس بفترة من الزمن لكي يتربوا في هدوء.

كذلك قد يكون من الحكمة التعود على ضبط الأعصاب، فالعربي -والإنسان في عمومه- يستثار إذا أوذي في نفسه، أو إذا تعرض لأي إهانة.. فكف الأيدي كان للتربية ولضبط الأعصاب حتى لا يغضب الإنسان إلا لله.. فلا يغضب لنفسه، ولا لذاته. وكان العرب في قمة هذه الاستثارة كطبيعة عربية. فلعل أمرهم بكف الأيدي كان لتربيتهم أن يكون تصرفهم في سلوكهم لله، وألا يثوروا لأنفسهم، وأن يتريثوا في رد الفعل.

وربما كانت أيضا لأن الدعوة السلمية يمكن أن تعطف الناس على أصحاب هذا الدين وعلى أصحاب هذه الدعوة، وتحرج أعداءها الذين يقفون أمامها ويؤذونها.. فحينما تقابل الجماعة المسلمة إيذاء الأعداء بالسكوت والصبر وكف الأيدي لعل هذا يحرج الأعداء، ويجعلهم في حرج أمام الناس، ويعطف قلوب الناس على أصحاب هذه الدعوة.

وربما كان من الحكمة اجتناب أن يحدث في كل بيت مقتلة، وكان الصراع هو بين الآباء والأبناء والأمهات والإخوة والأزواج، فلو أن القتال كان مأمورا به لحدثت في بيوت الناس مقتلة، ولغابت عن الناس القضية الحقيقية الأساسية، وانشغلوا بقضايا الثأر وقضايا القتال وقضايا العراك.

وربما أيضا كان السبب أن دخول المسلمين مبكرا في قتال مع أفراد الجاهلية كان سيفني أعداداً من الفريقين، وخاصة من الجاهلية، ولعل هؤلاء يكونون جندا للإسلام بعد ذلك إذا سكت عنهم، وهذا ما حدث في الواقع.

وربما أيضا كان خطابا موجها للنخوة العربية التي كانت تتعود أن تقف مع المظلوم، وتقف مع الضعيف، فلعل هذا يجعل هؤلاء العرب الذين يقفون كي يتفرجوا يحددون مواقفهم بصورة أفضل، وهذا قد حدث أيضا في بعض الأحيان حينما كان يتدخل البعض في نصرة المسلمين.. كموقف أبي طالب مع رسول الله ﷺ، أو موقف بني هاشم جميعا في شعب بني هاشم، أو موقف ابن الدغنة مع أبي بكر، وموقف الذين مزقوا صحيفة المقاطعة التي علقتها قريش في جوف الكعبة.. وغيره كذلك.. فكان هؤلاء يعطفون وتستثار نخوتهم العربية. وهذا متكرر أيضا في البشرية بصورة أو أخرى.

وأيضا ربما لأن المسلمين كان عددهم قليلا في ذلك الوقت، فإذا دخلوا معركة فقد يقتلون جميعا -حتى لو قتلوا أضعافهم من المشركين- وتضيع الفكرة بمقتل أصحابها، فكان لا بد أن تكف الأيدي حتى يكون للمسلمين شوكة تستبقي الفكرة حتى وإن قُتل بعضهم في أي وقت من الأوقات.

ولكن حينما انتقل المسلمون إلى المدينة لم يعد هناك ضرورة لكف الأيدي، وإنما أصبح للمسلمين قاعدة، وأصبح لهم قوة، وأصبح لهم شرعية -حتى بالمفهوم الجاهلي- كأصحاب دولة أو أصحاب أرض يجاهدون عن أنفسهم، ويقاتلون ويدفعون عن أنفسهم الضرر، فأصبحت لهم قاعدة آمنة ينطلقون منها، وأصبح لهم -حتى في الحس الجاهلي- منطق مشروع يواجهون به الناس بصورة القتال أو القتل.

فلم يعد -إذن- في المدينة داعٍ لكف الأيدي، وإنما أصبح مسموحاً لهم أن يقاتلوا.. ولكن حتى في المدينة لم يشرع القتال مرة واحدة، ولم يسمح لهم أن يقاتلوا الجميع مرة واحدة، وإنما سمح لهم بالاستطلاع أولا، ثم بعد ذلك برد العدوان، ثم بعد ذلك بالانطلاق الكامل لقتال المشركين كافة.. وهذا كله يتمشى مع قضية المرحلية التي سنفرد لها حديثا طويلا بعد ذلك إن شاء الله.

لكن الذي نريد تقريره هنا أنهم بعد أن انتقلوا إلى المدينة أصبحت لهم قاعدة آمنة. وفكرة القاعدة الآمنة مهمة جدا في كل وقت. فالمسلمون حينما يكونون تحت سلطان الجاهلية وبدون قاعدة لا يكونون أبدا في الوضع الأمثل الذي ينطلقون فيه للقتال، لأن عدم وجود قاعدة آمنة، وعدم وجود موارد أيضا مأمونة تمدهم باستمرار يجعل موقفهم ضعيفا، ويجعلهم بين فكي الكماشة باستمرار. لذلك لم يطلب من المؤمنين في مكة ولا يطلب منهم في أي وقت من الأوقات -حينما لا تكون لهم قاعدة آمنة ينطلقون منها- أن يدخلوا في صراع مسلح مع الجاهلية.. فالجاهلية ستكون أقوى منهم عشرات المرات، وسيدخلون في معادلة صعبة جدا لا يمكن تحقيقها في واقع الأمر.

فالذي جرى أول مرة ينبغي أن يظل نبراساً لأي تجمع إسلامي؛ أنه طالما هو مستضعف، لا يملك سلطانا على نفسه، ولا يملك قاعدة آمنة ينطلق منها ويعود إليها، ولا يملك موارد مأمونة ومضمونة تمده دائما بالإمدادات.. يظل المسلم معذورا في ألا يدخل في معركة مكشوفة، ولا في قتال مكشوف مع الجاهلية. لذلك كان كف الأيدي في مكة مفهوما ومُفسَراً.

وبكل هذه السبعة أسباب أو السبعة حكم التي قلناها يكون الأمر بالقتال في المدينة مفهوما؛ فالقتال أصبح طبيعيا لوجود القاعدة الآمنة.

الحكمة من كف الأيدي في أول العهد بالمدينة

قلنا إن كف الأيدي كان في الفترة المكية، وكان أيضا في أول العهد بالمدينة، وقد ذكرنا الحِكَم المستقاة من السيرة في الفترة المكية.

أما في المدينة فلعل كف الأيدي في الفترة الأولى كان له عدة ملابسات أو حِكم أدت إلى ذلك، وإن كانت الفترة لم تطل.. لأننا -كما نعلم- أن بدراً كانت في السنة الثانية من الهجرة، وقد سبقت بدرا سرايا عديدة بعث بها رسول الله ﷺ لكي يؤمن المدينة ويثير الرعب في القبائل حتى لا يطمعوا في المدينة.

ولكن في أول الأمر قبل ذلك كان كف الأيدي. ولعله كانت هناك فترة احتاجت فيها الدولة الوليدة بعد الاستقرار في المدينة إلى قدر من إعطاء فرصة للبلاغ والبيان.. فظل عليه السلام يبلغ ويبين لفترةٍ ما في المدينة؛ سواء ما كان يحتاجه العرب الوثنيون، أو اليهود وأهل الكتاب الذين كانوا في المدينة وحولها، فكانوا محتاجين أن يسمعوا من رسول الله ﷺ بأنفسهم، ويتفهموا الأمر حتى ولو كان عندهم خبر عنه.

وكان الرسول ﷺ يحتاج إلى قدر من الوقت -أيضا- لتنظيم المجتمع الجديد في أول عهده بالمدينة، وقد رأينا تلك المعاهدة التي عقدها أو ذلك الميثاق الذي كتبه ليحدد الحقوق والواجبات والمسئوليات على كل الأطراف الساكنة في المدينة باعتبار أنه قد أصبح رأس السلطة في المدينة. فاحتاج هذا الأمر قدرا من الوقت -أيضا- لينظم القاعدة الجديدة لتصلح أن تكون قاعدة للانطلاق.

ولعله أيضا ﷺ كان يريد التفرغ في هذه المرحلة لقريش، ويستعد لهذا التفرع قبل أن يضرب الجهات الأخرى، فوقف في حالة انتظار لكي يرى ماذا ستفعل قريش بعد هجرته ﷺ، ولذلك توالت السرايا للاستطلاع والاستكشاف، ولم يكن هدفها القتال بالدرجة الأولى.

ثم بعد ذلك حدثت غزوة بدر الكبرى.. فكف الأيدي في المدينة كان لفترة قصيرة امتدادا لكف الأيدي في مكة، وكان لأغراض أيضا تتمشى مع طبيعة الظرف الجديد الذي وجد فيه رسول الله ﷺ والمسلمون.

ونلاحظ أن الأستاذ سيد رحمه الله قد اهتم بقضية الجهاد، وتوضيح معناه، والحديث عن الشبهات أو عن المكر الخبيث للمستشرقين.. ولعله قد كرر هذا المعنى أكثر من مرة، مما يشي أن هذا الأمر كان يشغله كثيرا، أو كان يحس أن له خطراً وأن له ثقلاً كبيراً في الواقع الذي نعيشه، ولذلك نجده قد كرر كثيرا الحديث عن مفهوم الجهاد، وأيضا عن المؤاخذات التي يأخذها على المنهزمين، ونجد ذلك التفصيل المتكرر لمفهوم الجهاد.

وبما أننا نتحدث عن شروح للكتاب فنحن ملزمون بمتابعة الكتاب كما كتبه الأستاذ سيد، حتى وإن كان هناك بعض التكرار الذي قد يبدو -في نظر البعض- تكرارا زائدا..

مبررات الجهاد في الإسلام

يقول مرة أخرى **"ورؤية الموقف من خلال ملابسات الواقع، لا تدع مجالاً للقول بأن "الدفاع" بمفهومه الضيق كان هو قاعدة الحركة الإسلامية، كما يقول المهزومون أمام الواقع الحاضر، وأمام الهجوم الاستشراقي الماكر!**

إن الذين يلجؤون إلى تلمس أسباب دفاعية بحتة لحركة المد الإسلامي، إنما يُؤخذون بحركة الهجوم الاستشراقية، في وقت لم يعد للمسلمين شوكة، بل لم يعد "للمسلمين" إسلام! إلا من عصم الله.."

فالمستشرقون ينتهزون فرصة هذا الضعف أو عدم وجود إسلام ولا مسلمين الآن، ويضغطون بهذه التهم على الجهاد الإسلامي لجعل المهزومين يدافعون ويبحثون عن مبررات أدبية للدفاع عن الجهاد الإسلامي باعتباره كان دفاعا عن النفس، ولم يكن هجوما، ولم يكن محاولة للقهر والإجبار.. بينما النصوص القرآنية واضحة تماما في أن الله يطالب المسلمين بالقتال، وأن هذا القتال مطلوب وواجب عليهم لكي يكون الدين كله لله، كتلك النصوص التي جاءت في سورة النساء مثلا ﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۞ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۞ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٤-٧٦].. فهذا حض واضح من الله سبحانه للمسلمين أن يقاتلوا في سبيل الله، وفي سبيل المستضعفين وإخراجهم من ظلم الظالمين.. وسمى القرية الظالم أهلها -ولم يسمها قرية ظالمة لأنها مكة- فوصف أهلها بالظلم ولم يصف القرية نفسها بالظلم.. ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ﴾ [النساء:٧٥].. ويقرر أن المؤمنين يقاتلون في سبيل الله، وأن الكافرين يقاتلون في سبيل الطاغوت.. ويقرر أيضا أنهم أولياء للشيطان، وأن الشيطان كيده ضعيف لا يخشى منه.

فهذه مطالبة مُلِحة للمؤمنين كي يقاتلوا. وبالتالي فلا يجوز للمؤمن أن يبحث عما يدحض أو يرد كلام الله عز وجل أمام محاولات الاستشراق في أن يحرجوا الدعاة بأن الإسلام انتشر بحد السيف، أو انتشر بالقهر، أو أن الإسلام دين يصادر إرادة الإنسان أو فكر الإنسان، أو لا يقبل النقاش ولا يقبل الحوار.. كل هذه المحاولات للمستشرقين لا يجوز للمؤمنين أن يُؤخذوا بها.

كما يقرر الله سبحانه أيضا في سورة الأنفال ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ۞ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ [الأنفال: ٣٨-٤٠] فهذه أيضا واضحة في أن القتال ماضٍ حتى يكون الدين كله لله، وأنه يعطي للذين كفروا فرصة أن ينتهوا، فإن لم ينتهوا يقاتلون، وأن الله هو مولى المؤمنين وهو نعم المولى ونعم النصير.. فليس للمؤمنين أن يبحثوا عن أعذار ولا أن يخجلوا من أن يقاتلوا الذين كفروا، وعليهم أن يردوا كيد المستشرقين ومكرهم على أعقابهم.. لأن هذا الدين دين الله، وهذه أرض الله، والله من حقه أن يحكم.. ومن حقه أن يسيطر ويهيمن، والذين يريدون أن يغتصبوا هذا الحق على المؤمنين أن يسحقوهم وأن يزحزحوهم عن مكانهم.

ويقول تعالى -أيضا- في سورة التوبة ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].. وفي آخر هذه الآيات يقرر الله سبحانه أنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، فلا بد أن يعمل المؤمنون على نشر دين الله وعلى إتمام نور الله عز وجل ولو كره الكافرون، ولو كره المستشرقون.. ولا يؤخذوا بهذه الدعاية.

يقول الأستاذ سيد عن هذه الآيات كلها **"إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض، وتحقيق منهجه في حياة الناس، ومطاردة الشياطين ومناهج الشياطين، وتحطيم سلطان البشر الذي يتعبد الناس، والناس عبيد لله وحده، لا يجوز أن يحكمهم أحد من عباده بسلطان من عند نفسه وبشريعة من هواه ورأيه! وهذا يكفي.. مع تقرير مبدأ: "لا إكراه في الدين".. أي لا إكراه على اعتناق العقيدة، بعد الخروج من سلطان العبيد، والإقرار بمبدأ أن السلطان كله لله، أو أن الدين كله لله، بهذا الاعتبار."**

فلا يحتاج المؤمن إلى مبررات أخرى غير المبررات التي يقررها الله عز وجل في كتابه؛ إنها مبررات تقرير ألوهية الله في الأرض، وأن يكون السلطان كله لله سبحانه وتعالى.. **"إنها مبررات التحرير العام للإنسان في الأرض."**.

"وهذه وحدها تكفي.." أي كلمات الله عز وجل، وحديث رسوله ﷺ تكفي بالنسبة للمؤمن **"لقد كانت هذه المبررات ماثلة في نفوس الغزاة من المسلمين، فلم يُسأل أحد منهم عما أخرجه للجهاد فيقول: خرجنا ندافع عن وطننا المهدد! أو خرجنا نصد عدوان الفرس أو الروم علينا نحن المسلمين! أو خرجنا نوسع رقعتنا ونستكثر من الغنيمة!**

لقد كانوا يقولون كما قال ربعي بن عامر. وحذيفة بن محصن والمغيرة بن شعبة جميعاً لرستم قائد جيش الفرس في القادسية، وهو يسألهم واحداً بعد واحد في ثلاثة أيام متوالية، قبل المعركة: ما الذي جاء بكم؟ فيكون الجواب: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده. ومن ضيق الدنيا إلى سعتها. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.. فأرسل رسوله بدينه إلى خلقه، فمن قَبِله منا قَبِلْنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه. ومن أبى قاتلناه حتى نفضي إلى الجنة أو الظفر)."

هذا كانت مبررات الغزاة من المسلمين والفاتحين من المسلمين.. المبررات أن الله ابتعثهم ليحرروا البشرية من سلطان الكفار، فإن أسلموا تركوهم وأرضهم، لأنهم ليسوا في حاجة إلى الأرض، وليسوا في حاجة إلى المال والغنيمة، وإنما هم ينشرون دين الله عز وجل، وإن أبوا قاتلوهم حتى يفضوا إلى الجنة أو الظفر..

ويقول **"إن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين ذاته، وفي إعلانه العام، وفي منهجه الواقعي.."** هذا المبرر هو الانتصار للحق ونصر الله سبحانه.. والإنسان الذي يؤمن بلا إله إلا الله، والذي يعرف مقام الألوهية، والذي يعرف حق الألوهية في تعبيد الكون والوجود كله لها يعرف أن هناك مبررا ذاتيا في طبيعة هذا الدين وهو أنه لا بد أن ينطلق ليحرر الأرض كلها بما عليها ويعيدها إلى سلطان الله وحده سبحانه وتعالى. فهو ليس في حاجة إلى مبرر من خارجه.. هو في ذاته يحمل المبرر؛ بأن الأرض أرض الله، والملك ملك الله، والحاكم هو الله.. فالأمر الطبيعي أن يكون جنود الله هم الذين يقومون لتقرير هذا الأمر في واقع الأرض..

"وهذا المبرر الذاتي قائم ابتداء -ولو لم يوجد خطر الاعتداء على الأرض الإسلامية وعلى المسلمين فيها- إنه مبرر في طبيعة المنهج وواقعيته، وطبيعة المعوقات الفعلية في المجتمعات البشرية.. لا من مجرد ملابسات دفاعية محدودة، وموقوتة!"

ويقول **"إن المسلم قبل أن ينطلق للجهاد في المعركة يكون قد خاض معركة الجهاد الأكبر في نفسه مع الشيطان.. مع هواه وشهواته.. مع مطامعه ورغباته.. مع مصالحه ومصالح عشيرته وقومه.. مع كل شارة غير شارة الإسلام.. ومع كل دافع إلا العبودية لله، وتحقيق سلطانه في الأرض وطرد سلطان الطواغيت المغتصبين لسلطان الله.."**

وهذا يعني أن نفس المؤمن من الداخل تلتقي مع طبيعة هذا الدين، ومع المبررات الذاتية في هذا الدين. فالإنسان المسلم ينطلق لتحقيق سلطان الله في الأرض، لا لتحقيق شهوة من شهواته، ولا لتحقيق مغنم، ولا ليتوسع، ولا ليحس بروعة الانتصار وفرحة الانتصار.. وإنما يخرج عبدا ذليلا لله، ليحقق ألوهية الله.. فتتوافق نفسية المؤمن مع حقيقة هذا الدين في نفس الوقت. وهذا أمر مهم.. لا يتحقق إلا من خلال جهاد النفس والارتفاع بها فوق غرائز الإنسان وشهواته وطموحاته. ولذلك نحن نقول كثيرا إن المسلم لا ينطلق إلى الجهاد في سبيل الله بدافع تحقيق النصر، حتى ولو كان ذلك النصر هو لدين الله، فهو أصلا يستجيب لداعي الله عز وجل لكي يقاتل. أما ان يكون هذا القتال نتيجته الانتصار، أو الموت في سبيل الله فهذا لا يهم المؤمن.

فلا بد أن يخرج المؤمن متجردا، ويكون عبدا خاضعا لله عز وجل، يحقق أمر الله كما يريده الله، وليس كما تريده شهواته، حتى ولو كانت ابتغاء نصر الدين نفسه.. فهو لا يدري لعل الله لا يريد النصر في هذه الجولة.. فلا يكون النصر هدفا في ذاته، إنما يكون الهدف في ذاته هو إرضاء الله، ثم يتحقق النصر أو لا يتحقق.. يموت هو أو يعيش.. فهذه قضية أخرى يقررها الله كما يشاء سبحانه وتعالى.

"والذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من شأن "المنهج" ويعتبرونه أقل من "الموطن" وهذه ليست نظرة الإسلام إلى هذه الاعتبارات".

فهو يقرر هنا إن الذين يبحثون عن مبررات الجهاد الإسلامي في حماية "الوطن الإسلامي" يغضون من شأن المنهج، ويعتبرونه أقل من الموطن، أي أقل من الأرض، فيعتبرون الأرض هي الأصل، والدفاع عنها هو الأصل.. أما منهج الله، وأما دين الله فليس في مقام الأرض التي يدافعون عنها. وكما يقول؛ إن الإسلام لا ينظر إلى الأمور بهذه الطريقة، ولكنها نظرة مستحدثة، أتتنا مع الغزو الفكري، غريبة على الحس الإسلامي.. لأن روابط الجاهلية باستمرار -كما قررنا قبل ذلك- هي روابط الحيوان؛ سواء دافع عن الجنس، أو عن الأرض، أو عن اللون، أو عن اللغة، أو عن المصالح.

لكن الإسلام يدافع عن دين الله عز وجل ويقرر الحقيقة، والأرض تستمد قيمتها من المنهج الذي يحكمها، ومن الواقع الذي تعيشه؛ فإن كانت أرض إسلام فهي أرض مكرمة، وإن كانت أرض كفر فهي ليست كذلك، ولا بد من تطهيرها وإرجاعها إلى الله عز وجل. فالذين يبحثون عن مبررات للجهاد الإسلامي على أنه دفاع فقط عن دار الإسلام وعن الأرض هؤلاء يغضون من قيمة المنهج. والإسلام لا يعترف بذلك.. **"أما الأرض -بذاتها- فلا اعتبار لها ولا وزن! وكل قيمة للأرض في التصور الإسلامي إنما هي مستمدة من سيادة منهج الله وسلطانه فيها، وبهذا تكون محضن العقيدة وحقل المنهج و "دار الإسلام" ونقطة الانطلاق لتحرير "الإنسان"."**

فنحن حينما نحافظ على الأرض إنما نحافظ عليها باعتبارها القاعدة التي ننطلق منها لتحرير الإنسان، وأنها التي نقيم فيها المنهج، والذي نكون فيها أحراراً في اعتقادنا وفي حياتنا.. فتصبح الأرض حينذاك مهمة ندافع عنها، لكي نحتفظ بعقيدتنا ونحتفظ بمنهجنا، ولكي تكون نقطة انطلاق لتحرير الإنسان.

أما أن تكون الأرض لذات الأرض.. فالإسلام لا يعترف بهذا على الإطلاق.

ويقول **"وحقيقةً إن حماية "دار الإسلام" حماية للعقيدة والمنهج والمجتمع الذي يسود فيه المنهج. ولكنها هي ليست الهدف النهائي، وليست حمايتها هي الغاية الأخيرة لحركة الجهاد الإسلامي، إنما حمايتها هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها وإلى النوع الإنساني بجملته.."**

فلا بد أن تكون عندنا قاعدة لننطلق منها، فحينما يُعتدى عليها لا بد أن نرد الاعتداء، لكن هذا ليس الخطوة الأخيرة، ولا هو نهاية المطاف.. وإنما نرد العدوان عليها لننتقل إلى خطوة جديدة.. لننطلق إلى بقية الأرض ونحررها من الطاغوت.

وحمايتها إنما هي الوسيلة لقيام مملكة الله فيها، ثم لاتخاذها قاعدة انطلاق إلى الأرض كلها، وإلى النوع الإنساني بجملته. فكما يقول **"فالنوع الإنساني هو موضوع هذا الدين والأرض هي مجاله الكبير!**

وكما أسلفنا فإن الانطلاق بالمذهب الإلهي[٣] تقوم في وجهه عقبات مادية من سلطة الدولة، ونظام المجتمع، وأوضاع البيئة.. وهذه كلها هي التي ينطلق الإسلام ليحطمها بالقوة، كي يخلو له وجه الأفراد من الناس، يخاطب ضمائرهم وأفكارهم، بعد أن يحررها من الأغلال المادية، ويترك لها بعد ذلك حرية الاختيار."

وبالتالي فخطة الدفاع التي مر بها المسلمون هي خطة وقتية وليست خطة نهائية، ولذلك لا يجب أن نستجيب لمكر المستشرقين حينما يريدون أن يقفوا بنا عند هذه المرحلة الوسيطة، أو هذه المرحلة الوقتية التي مر بها الجهاد الإسلامي.

يقول **"يجب ونحن نستعرض الواقع التاريخي ألا نغفل عن الاعتبارات الذاتية في طبيعة هذا الدين وإعلانه العام ومنهجه الواقعي، وألا نخلط بينها وبين المقتضيات الدفاعية الوقتية.."** فالمجتمع المسلم، أو دار الإسلام تمر عليها فترات تكون كل مهمتها الدفاع عن كيانها.. تكون مستضعفة فتكون كل مهمتها أنها تدافع عن كيانها لتعيش.. فلا يقول أحد في ذلك الوقت أن هذا كل ما تريده! إنما هي مضطرة إلى هذا الموقف مؤقتا لأنها ضعيفة، فإذا قويت واستطاعت أن تحمي حدودها وتحمي مكانها، واستطاعت أن تنطلق وتخرج.. فهذا هدف جديد لا بد أن تنطلق إليه، وواجب أيضا. فلا نخلط بين الأوضاع المؤقتة، أو الظروف المؤقتة ونعتبرها ظروفا نهائية، أو نعتبرها هي أفضل الأوضاع بالنسبة لدار الإسلام، أو يأخذنا التكييف الجاهلي للقضايا فنعتبره هو المقياس، ونترك مقياس الله عز وجل.

فقد تقول الجاهلية أنه لا بد أن نعطي للآخر حق الرأي، ونحترم حدود الآخرين، وألا نتدخل في شؤون الدول الأخرى.. وكذا وكذا مما يجعلونه عناوين لمعنى الحرية ولمعنى المساواة.. هذه مقولات الجاهلية تقولها من موقعها هي باعتبار أنها ترى الإنسان هو القوة العليا،

---

٣ الصواب الدين الإلهي.

وأن ما يقرره الإنسان هو الصواب، وأن الناس كلهم متساوون في نقطة الانطلاق.. ولذا يجب أن يقف كل إنسان منهم عند حدود الإنسان الآخر.

أما حينما يكون الأمر عكس ما يرونه؛ أن يكون الأمر لله والملك لله، فيكون الأمر غير ذلك.. لا يقام للناس في هذا ولا لرغباتهم وزن، فينبغي أن يكون دائما ميزان المسلم هو ما يقرره الإسلام وليس ما تدعو إليه الجاهلية، أو تمدحه وتثني عليه. وهذا هو ما يحدث عند المنهزمين؛ أنهم أولا يتلقون من الجاهليين ويقرون مقولاتهم، ثم بعد ذلك تصبح هذه المقولات ضاغطة على أعصابهم يريدون أن يرتفعوا إلى مستواها، فيبدؤون بتبرئة أنفسهم من فكرة الاعتداء ومصادرة الرأي الآخر وتملك أرض الآخر، ويعدون أن هذه هي المثاليات.. لذلك يحاولون أن يبرروا أو يجدوا مبررات للجهاد الإسلامي؛ أنه كان يدافع عن نفسه، وأنه كان مضطرا إلى أن يخرج عن حدوده لأنه كان وكان وكان.. وهذا لا يجوز على الإطلاق.. فهذه الأمور الوقتية.. **"هذه ملابسة لا بد منها، تولد مع ميلاد الإسلام ذاته، وهذه معركة مفروضة على الإسلام فرضاً، ولا خيار له في خوضها، وهذا صراع طبيعي بين وجودين لا يمكن التعايش بينهما طويلاً..."**

"ولكن هناك حقيقة أخرى أشد أصالة من هذه الحقيقة.. إن من طبيعة الوجود الإسلامي ذاته أن يتحرك إلى الأمام ابتداءً لإنقاذ "الإنسان" في "الأرض" من العبودية لغير الله، ولا يمكن أن يقف عند حدود جغرافية، ولا أن ينـزوي داخل حدود عنصرية، تاركاً "الإنسان".. نوع الإنسان.. في "الأرض".. كل الأرض.. للشر والفساد والعبودية لغير الله."

فليس من حق المسلم أن يقرر لنفسه حركته على الأرض.. الذي يقرر له حركته على الأرض هو إلهه وسيده سبحانه وتعالى.. والله أمر المسلم أن ينساح في الأرض كلها، لا يعترف بالحدود الجغرافية، لأنه ليست هناك حدودا جغرافية في أرض كلها لله.. الحدود الجغرافية صنعها الناس، وهذه مقولات الناس، وهذه حدود الناس، وإنما الأرض لا حدود لها، الأرض كلها لله، فينبغي أن تظل كلها لله ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن: ١٠] فهو خالقها وهو مالكها وإنما الإنسان مستخلف فيها لا مالك ومن ثم فلا نقف عند الحدود الجغرافية لأنها صناعة بشرية، وعلى الناس جميعا أن يكونوا في مملكة واحدة هي مملكة الله عز وجل.

"إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تُؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام.." فيمكن أن تهادن المعسكراتُ المعادية الإسلامَ، وتطلب منه أن يتركها ويهادنها.. هذا الأمر أيضا لا يرضاه الإسلام، لن يترك الناس يختارون الموقف الذي يريدون كما يهوون.. والاختيار الوحيد؛ إما أن يدخلوا في الإسلام وإما أن يخضعوا لشرع الله ولسلطان الله.. لكن أن يقولوا لن نهاجمكم ولا تهاجمونا، هذا ليس منطق المسلم.

"إن المعسكرات المعادية للإسلام قد يجيء عليها زمان تؤثر فيه ألا تهاجم الإسلام، إذا تركها الإسلام تزاول عبودية البشر للبشر داخل حدودها الإقليمية، ورضي أن يدعها وشأنها ولم يمد إليها دعوته وإعلانه التحريري العام! ولكن الإسلام لا يهادنها، إلا أن تعلن استسلامها لسلطانه في صورة أداء الجزية، ضماناً لفتح أبوابها لدعوته بلا عوائق مادية من السلطات القائمة فيها."

وهذا موقف لا يجوز أن يجمجم فيه المسلم، ولا أن يخجل منه.. وإنما عليه أن يعلن موقفه في وضوح: أنتم ليس لكم حق أن تختاروا المواقف التي تريدونها.. نحن نعرض عليكم بوصفنا دعاة لله في الأرض أن تدخلوا في دين الله فتكونوا مثلنا، لكم ما لنا وعليكم ما علينا.. أو أن تدفعوا الجزية وتخضعوا لسلطان الله عز وجل. فحتى لو هادنتنا الجاهلية، وحتى لو سكتت.. فالإسلام لن يهادنها حتى

تستسلم لسلطانه في صورة أداء الجزية، أو في الدخول في دين الله عز وجل.. **"هذه طبيعة هذا الدين، وهذه وظيفته، بحكم أنه إعلان عام لربوبية الله للعالمين، وتحرير الإنسان من كل عبودية لغير الله في الناس أجمعين!"**

ويقول **"وفرق بين تصور الإسلام على هذه الطبيعة، وتصوره قابعاً داخل حدود إقليمية أو عنصرية، لا يحركه إلا خوف الاعتداء!.."**

ولا شك أنه ستتغير الدوافع، وتتغير نفسية المسلم، وتتغير النتائج أيضا إذا تصورت أنني صاحب حدود أدافع عنها وأحرص عليها، ولا يجوز لي أن أعتدي على حدود الآخرين، وأن أترك الناس في حالهم، وأنني لست مطالباً بأن يكون الدين كله لله في الأرض.. فهذا تصور.. والتصور الآخر أن أعرف الحقيقة؛ أنني مطالب أن أسيح في الأرض لأخضع وأزيل كل العقبات لكي يكون الدين كله لله، وأترك الناس بعد ذلك يختارون ما يريدون من عقيدة.. لا شك أن الموقف سيتغير، وأن النتائج أيضا ستتغير.

"إن مبررات الانطلاق الإسلامي تبرز بوضوح وعمق عند تذكر أن هذا الدين هو منهج الله للحياة البشرية، وليس منهج إنسان، ولا مذهب شيعة من الناس، ولا نظام جنس من الأجناس! ونحن لا نبحث عن مبررات خارجية إلا حين تفتر في حِسِّنا هذه الحقيقة الهائلة.. حين ننسى أن القضية هي قضية ألوهية الله وعبودية العباد.. إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي!"

لا شك أن المسلم.. إن لم يكن ممتلئا اقتناعا وعزة وفرحا واعتزازا بهذا الحق، وأنه ينطلق لا يخيفه شيء ولا يوقفه شيء، مستندا إلى قوة الله، ومتوكلا فيه على الله، وشامخا بعبوديته لله، ومحتقرا كل الطواغيت الذليلة مهما كانت متجبرة.. لا شك أنه إن لم يكن المسلم كذلك فسيكون ضعيفا ويكون مهزوما، ولن يقيم الإنسان المسلم الإسلام بهذه النفس المنهزمة أبدا.. لا بد أن يكون مستعليا بالحق، موقنا به، شامخا به، لا يخجل من أن يقول الحق حتى ولو كره الناس أجمعون. إنه لا يمكن أن يستحضر إنسان ما هذه الحقيقة الهائلة ثم يبحث عن مبرر آخر للجهاد الإسلامي.. يعرف إنسان حقيقة مكانه من الله ثم يتصور أنه يخجل أن يعلن هذه الحقيقة أو يجمجم فيها، أو ينهزم أمام أي أقاويل أخرى. لا بد أن يمتلئ المسلم بالإصرار والاعتزاز، ولا تأخذه في ذلك هوادة ولا مجاملة ولا رحمة، لأن الرحمة الحقيقية تكمن في حكم الله عز وجل.

"والمسافة قد لا تبدو كبيرة عند مفرق الطريق، بين تصور أن الإسلام كان مضطراً لخوض معركة لا اختيار له فيها، بحكم وجوده الذاتي ووجود المجتمعات الجاهلية الأخرى التي لا بد أن تهاجمه، وتصور أنه هو بذاته لا بد أن يتحرك ابتداءً، فيدخل في هذه المعركة.."

قد لا تبدو المسافة كبيرة في بادئ الأمر، لأنه سيقاتل على أي الأحوال، سيقاتل لأن الناس يقاتلونه، وسيقاتل لأنه ينبغي أن يتقدم هو ويبدأ.. ففي أول الأمر قد تبدو المسافة بسيطة، فهو قتال على كل حال..

"المسافة عند مفرق الطريق قد لا تبدو كبيرة، فهو في كلتا الحالتين سيدخل المعركة حتماً، ولكنها في نهاية الطريق تبدو هائلة شاسعة، تغير المشاعر والمفهومات الإسلامية تغييراً كبيراً.. خطيراً."

ويأتي هذا التغير في المشاعر والمفهومات، وتتضح هذه المسافة الكبيرة حينما ينطلق الإنسان ليدافع عن حدوده سيقف حينما تؤمّن هذه الحدود وينتهي الموقف، ولا يكون دافعه في حينها هو إعلان كلمة الله ولا نشر دين الله ولا إزالة الطواغيت ولا إنقاذ الناس مما هم فيه من عبودية لغير الله.. ستكون مشاعره مشاعر الذي يريد أن يدفع الخطر عن حدوده فقط، دون أن يستصحب مع ذلك أي مشاعر ولا أي مثل عليا ولا أي أهداف رفيعة من تلك الأهداف التي يحملها المسلم الذي يفهم حقيقة دينه. أما المسلم الآخر فسينطلق؛ سواء هُدِّدَت حدوده أم لم تُهدَّدَ، لأنه -وهو في دار الإسلام- يشعر بأن إنسانية الإنسان مهددة وهم يعيشون تحت عبودية الطواغيت، ويحس بشقاء الإنسانية من حوله وهم يعيشون تحت ظلم الطواغيت. ثم هو فوق ذلك يغار على عباد الله أن يكونوا عبيدا لغير لله. ولذلك يحس أنه كما حرره الله لا بد أن يحرر الآخرين. هذه كلها مشاعر أخرى تماما غير تلك التي تكون عند من يريد أن يدفع الأمر عن حدوده فقط ثم يقف. فالمسافة تبدو هائلة في قلب الإنسان أولا، وفي نتائجها الباهرة بعد ذلك حينما يحقق الله هذا الأمر..

قضية عقيدة

"هذا تصور.. وذاك تصور.. ولو أن الإسلام في كلتا الحالتين سيجاهد.. ولكن التصور الكلي لبواعث هذا الجهاد وأهدافه ونتائجه، يختلف اختلافاً بعيداً، يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه."

يبهرني جدا دخول الأستاذ سيد رحمه الله إلى قضايا خطيرة جدا في لمح البصر.. فينقلك من مجرد قضية جهاد وقتال إلى أن تصبح قضية عقيدة.. هكذا يدخل بك بسرعة جدا.. فأنت تقرأ في قضية جهاد وقتال، لكن حينما يعبِّر أن الأمر يدخل في صميم الاعتقاد كما يدخل في صميم الخطة والاتجاه.. يتعجب المرء كيف أنه لم يخطر على باله هذا المعنى.. لأنه حينما ترضى أنت أن تقف عند حدودك الأرضية.. أنت في هذا قد خرجت فعلا عن مهمتك الإسلامية، وعن تكليف الله لك كمسلم بأن تقوم لكي يكون الدين كله لله. وهذا أمر مهم جدا أن يُفهم، وهذا من توفيقات الله للأستاذ سيد في أنه يجرك بطريقة عجيبة إلى قضايا ضخمة جدا تتصور أنها ليست بهذه الخطورة.. ولكنه فجأة ينزع عن عينيك الغشاوة لترى الحقيقة جديدة تماما، وترتبط في حسك هذا الارتباط الحي المتوهج العميق.

"إن من حق الإسلام أن يتحرك ابتداءً. فالإسلام ليس نحلة قوم، ولا نظام وطن، ولكنه منهج إله، ونظام عالم.. ومن حقه أن يتحرك ليحطم الحواجز من الأنظمة والأوضاع التي تغل من حرية "الإنسان" في الاختيار. وحسبه أنه لا يهاجم الأفراد ليكرههم على اعتناق عقيدته، إنما يهاجم الأنظمة والأوضاع ليحرر الأفراد من التأثيرات الفاسدة، المفسدة للفطرة، المقيدة لحرية الاختيار."

فيتقرر بهذا الحق بوضوح؛ أن هذا هو الإسلام، وهذا هو واجب المسلم، وأنه لا ينبغي أن يجمجم ولا يتلعثم ولا يخجل من هذا التقرير، وأن يعرف أنه بهذا لم يصادر حرية الآخرين كما يقولون، لأن الآخرين ليسوا أحرارا، -كما يظنون- وإنما هم عبيد لله سواء أرادوا أم لم يريدوا.. ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].. فمن أين جاءت الحرية للإنسان حتى يرفض أن يكون عبدا لله؟ هو عبد لله أراد أم لم يرد، لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي صوره، وهو الذي يميته، وهو الذي يحييه.. فمن أين جاءت لهم هذه النعرة وهذه العصبية وهذه النزغة الشيطانية حتى يظنوا أنهم ليسوا عبيدا لله؟ هم عبيد رضوا أم لم يرضوا.. ولذلك حينما ندعوهم إلى منهج الله فنحن لم نصادر حريتهم، بل العكس، نحن نستجيب لحقيقة موقعهم الطبيعي الذي خلقوا من أجله.. فحينما

يخاطبنا ويناقشنا الآخرون ويدَّعُون أن هذه مصادرة للآخر نقول لهم: لا.. هذا إرجاع لهم إلى موقعهم الطبيعي الذي تمردوا عليه، والذي خرجوا يريدون التحرر منه.. ونحن نريد أن نحفظهم من هلاك أنفسهم ومن تدمير أنفسهم.. فالحقيقة هي أننا نحافظ عليهم ولا نصادرهم، ونطالبهم أن يقفوا معنا نفس الموقف.. كلنا عبيد، وكلنا خاضعون لإله واحد.. فنحن لا نصادر حرية الآخرين، ولكن الجاهلية تحاول دائما أن تستفز الدعاة بمثل هذه المقولات التي تغيب عن بعض السذج الذين ينبهرون بتلك الشعارات المزينة، بينما هي شعارات فارغة جدا لا تعني شيئا. والمسلم الحقيقي يسخر منها، ويستطيع أن يردها بسهولة، ويستطيع أن يجعل الجاهلية تخجل من مكابرتها ومغالطتها ونفاقها. وما حالنا وحال أولئك الذين نريد أن نعيدهم إلى رشدهم وإلي موقعهم الحقيقي.. موقع العبودية لله إلا كحال من يمنع الذي يريد الانتحار مما أقدم عليه فإذا به يدفع منقذه ويسبه.

"من حق الإسلام أن يُخرج "الناس" من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.. ليحقق إعلانه العام بربوبية الله للعالمين، وتحرير الناس أجمعين.. وعبادة الله وحده لا تتحقق -في التصور الإسلامي وفي الواقع العملي- إلا في ظل النظام الإسلامي. فهو وحده النظام الذي يشرع الله فيه للعباد كلهم، حاكمهم ومحكومهم، أسودهم وأبيضهم، قاصيهم ودانيهم، فقيرهم وغنيهم، تشريعاً واحداً يخضع له الجميع على السواء.. أما في سائر الأنظمة، فيعبد الناس العباد، لأنهم يتلقون التشريع لحياتهم من العباد. وهو من خصائص الألوهية، فأيما بشر ادعى لنفسه سلطان التشريع للناس من عند نفسه، فقد ادّعى الألوهية اختصاصاً وعملاً، سواء ادَّعاها قولاً أم لم يعلن هذا الادعاء. وأيما بشر آخر اعترف لذلك البشر بذلك الحق فقد اعترف له بحق الألوهية، سواء سماها باسمها أم لم يسمها!"

وهذا تلخيص جيد للحقيقة، بحيث يصبح المسلم بعد ذلك مندفعاً اندفاعا ذاتيا لكي يحقق ألوهية الله في الأرض، وبحيث يجفل ويخاف ويرتجف من أن يتلبس ولو للحظة واحدة أن يكون عبدا لبشر مثله.. يعبده حينما يقبل منه ولو تشريعا واحدا.

وحينما تتقرر القضية بهذا الجلاء وبهذا الوضوح يصبح الجهاد الإسلامي إفرازا طبيعيا وحقا طبيعيا وواجبا طبيعيا على الإنسان المسلم أن يفعله بلا تحرج وبلا خجل ﴿ كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٢].. فالمسلم لا يجد حرجا من كتاب ربه ولا من كلمات ربه، وإنما ينطلق وهو مطمئن تماما لهذا.

الإسلام عقيدة ومنهج لا بد أن ينظم الحياة

"والإسلام ليس مجرد عقيدة، حتى يقنع بإبلاغ عقيدته للناس بوسيلة البيان. إنما هو منهج يتمثل في تجمع تنظيمي حركي يزحف لتحرير كل الناس، والتجمعات الأخرى لا تمكِّنه من تنظيم حياة رعاياها وفق منهجه هو، ومن ثم يتحتم على الإسلام أن يزيل هذه الأنظمة بوصفها معوقات للتحرير العام. وهذا -كما قلنا من قبل- معنى أن يكون الدين كله لله، فلا تكون هناك دينونة ولا طاعة لعبد من العباد لذاته. كما هو الشأن في سائر الأنظمة التي تقوم على عبودية العباد للعباد!"

هناك بعض المفكرين يقولون إن الجهاد كان مطلوبا في الماضي لأن الدعوة لم تكن تصل للناس.. أما في وقت أصبحت الدنيا فيه قرية واحدة، وتحققت ثورة الاتصالات والإنترنت، وأصبحت الحقيقة تصل إلى أطراف الناس في كل مكان في الأرض، بل يمكن أن تصل للكواكب الأخرى، فلم يعد هناك إذن داع للجهاد، لأن الدعوة وصلت، والجهاد كان مطلوبا منه أن يبلغ الدعوة!

هذا تصور قاصر جدا.. فالدعوة ليست بلاغا فقط ودين الله لن يقوم في الواقع ولو استعملنا مليون انترنت لنبلغ الحقيقة، ومهما بلغت الحقيقة للناس جميعا.. وحتى لو اقتنع الناس بالإسلام ولكن ظل الطواغيت يحكمونهم ويعصفون بهم فإنهم لن يدخلوا في دين الله بمعناه الحق أي في شرع الله وحكمه فالدين هو النظام والشرع كما قال الله سبحانه ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٧٦] أي في شرعه ونظامه فلا بد إذن من إزالة الطواغيت لكي نقيم حكم الله. فهؤلاء المنهزمون من المفكرين ينسون هذه الحقيقة في لحظة من اللحظات.

ومرة أخرى يقول الأستاذ سيد رحمه الله ولكن بإضافة مهمة.. **"إن الباحثين الإسلاميين المعاصرين المهزومين تحت ضغط الواقع الحاضر وتحت الهجوم الاستشراقي الماكر، يتحرجون من تقرير تلك الحقيقة، لأن المستشرقين صوروا الإسلام حركة قهر بالسيف للإكراه على العقيدة. والمستشرقون الخبثاء يعرفون جيداً أن هذه ليست هي الحقيقة، ولكنهم يشوهون بواعث الجهاد الإسلامي بهذه الطريقة.. ومن ثم يقوم المنافحون -المهزومون- عن سمعة الإسلام، بنفي هذا الاتهام، فيلجؤون إلى تلمس المبررات الدفاعية! ويغفلون عن طبيعة الإسلام ووظيفته، وحقه في "تحرير الإنسان" ابتداءً."**

وهذا -ولا شك- منظر ساخر جدا.. الخبثاء من المستشرقين ومن الجاهلية يعرفون الفعل ورد الفعل، فيقولون إن الإسلام انتشر بالسيف وأكره الناس على العقيدة، وهم يعرفون أنها ليست حقيقة، ولكنهم يقيسون بدقة رد الفعل المتوقع من هؤلاء المهزومين الذين يعرفون أنهم مهزومون، فيحدث ما يتوقعونه؛ أن يتحرك هؤلاء المهزومون ليردوا ويقولوا: لا.. ما هو إلا دفاع عن النفس، وما كان الإسلام أبدا ليهاجم بلا سبب.. إلى آخر هذا الدفاع المهزوم، فيسخرون منهم، ويضحكون عليهم وهم يفعلون ذلك. وهذا ما يفعله دائما أعداء الإسلام.

ولا شك أن المسلم الذي يغفل عن حقائق دينه يجعل نفسه سخرية لأعدائه، لأن الأعداء يعرفون، ويسخرون منه. ويفعلون به ما يشاءون؛ فيلعبون به، والمسلم ليس كذلك.

ويقول أيضا إن الباحثين العصريين المهزومين أخذوا من الغزو الفكري، وأخذوا من الفكر الغربي الضال فكرة إن الدين مجرد عقيدة في الضمير لا شأن له بالأنظمة ولا بالحياة.. وهذا التصور الباطل للدين هو الذي يتمشى مع انحراف أوروبا بعد الكنيسة.. حيث صار الدين عندهم أمراً بين الإنسان وربه، ونحلة ومشاعر يصورها ويصبغها كل فرد بالصبغة التي يريدها.. أما الواقع فلا شأن له بالدين. فنقل هؤلاء الببغاوات هذه المقولات من الغرب، ثم جاءوا بعد ذلك ليحاكموا الإسلام إليها! ومن ثم يصبح الجهاد لا مكان له على الإطلاق.. فلماذا يجاهد وخاصة إذا كانت الفكرة كما يقول بعضهم قد وصلت إلى كل الناس، فماذا تريد بعد ذلك؟ فالناس يأخذون هذا الإسلام ويعيشون به، ولا داعي للاصطدام بالأنظمة ولا بالطواغيت، لأن كل واحد يستطيع أن يكون مسلما في أي مكان؛ لا أحد يمنعك من أن تصلي ولا أن تزكي ولا أن تتمتم بتسابيح.. فلماذا الجهاد إذن؟ لأن الإسلام في تصورهم عقيدة في الضمير، لا مكان له في إدارة الحياة.

"ولكن الأمر ليس كذلك في الإسلام، فالإسلام منهج الله للحياة البشرية، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية!.." فالإسلام يتدخل في كيف تأكل، كيف تشرب، إذا رأيت وجهك في المرآة ماذا تقول، إذا لبست ثوبك ماذا تقول، إذا خلعته ماذا تقول، إذا دخلت إلى دورة المياه ماذا تقول، إذا خرجت كذلك.. هكذا يتدخل الإسلام في كل حركة وسكون في حياتك، وكل نفس من حياتك.. فكيف يقال إن الإسلام شيء في الضمير؟! كيف يقوم

هذا الإسلام حينما لا تُزال العقبات التي يصنعها الطواغيت ويطمسون بها حقيقة الدين، بل يمنعون الناس من أن يعيشوا بهذا الدين؛ سواء عن طريق الإغراء والاستهواء، أو عن طريق الترهيب والإيذاء.

"فالإسلام منهج الله للحياة البشرية، وهو منهج يقوم على إفراد الله وحده بالألوهية -متمثلة في الحاكمية- وينظم الحياة الواقعية بكل تفصيلاتها اليومية! فالجهاد له جهاد لتقرير المنهج وإقامة النظام. أما العقيدة فأمر موكول إلى حرية الاقتناع، في ظل النظام العام، بعد رفع جميع المؤثرات.. ومن ثم يختلف الأمر من أساسه، وتصبح له صورة جديدة كاملة.

وحيثما وجد التجمع الإسلامي، الذي يتمثل فيه المنهج الإلهي، فإن الله يمنحه حق الحركة والانطلاق لتَسَلُّم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان، فإذا كف الله أيدي الجماعة المسلمة فترة عن الجهاد، فهذه مسألة خطة لا مسألة مبدأ، مسألة مقتضيات الحركة لا مسألة عقيدة.. وعلى هذا الأساس الواضح يمكن أن نفهم النصوص القرآنية المتعددة، في المراحل التاريخية المتجددة، ولا نخلط بين دلالتها المرحلية، والدلالة العامة لخط الحركة الإسلامية الثابت الطويل."

هذا كلام يستحق أن يكتب بماء الذهب، فالله سبحانه يمنح ذلك الفضل للإنسان حينما يحس أن الله هو الذي يبارك له ويباركه ويعتمده لكي يضيء الأرض بنور الله، ولكي يحرر العبيد من عبادة العبيد إلى عبادة الله، فينطلق وهو فرح مسرور معتز شامخ قوي، لا تخيفه العقبات، ولا تخجله المقولات، ولا ينخدع بالزيف، ولا يطأطئ رأسه مهزوما، وإنما هو الأعلى كما قال له القرآن ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩] فربط -سبحانه- الإيمان بالإحساس بالعزة والاستعلاء بالدين حتى وهم عائدون في أعقاب غزوة أحد مثخنين بالجراح، فقال لهم ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾.

فلا بد أن نتيقن أنه في أي وقت يوجد فيه هذا التجمع الإسلامي الذي يتمثل فيه منهج الله، فإن الله عز وجل يمنح هذا المجتمع حق الحركة والانطلاق لتسلم السلطان وتقرير النظام، مع ترك مسألة العقيدة الوجدانية لحرية الوجدان.

فكف الأيدي كان أمراً مؤقتا، وكان مسألة خطة مرحلية، وليس خطة دائمة.

ولذا فنحن بحاجة إلى أن نفهم ما الذي تعنيه المرحلية وهذا ما سنوضحه الآن بعونه سبحانه.

المرحلية في الإسلام

استعرضنا فيما مضى موضوع الجهاد، وركزنا كثيراً على مفهوم الجهاد ومعناه، وطبيعة المنهج الحركي في الإسلام وخصائصه. كما تحدثنا عن بعض الشبهات التي تقام أمام هذا المفهوم الواضح، وبينا طبيعة الجهاد الإسلامي، ونظرة الإسلام لهذه الفريضة أو لهذا المفهوم الكلي الجامع لكل أنواع الجهود التي تبذل لإعلاء كلمة الله، وإقرار ألوهية الله في الأرض، وإحلال شريعة الله مكان كل شرائع الطاغوت.

وأريد الآن أن أقرر حقيقة ينبغي أن نعيها نحن الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله؛ إن الذي يستعرض الدين الذي جاء من عند الله، منذ أن جاء أول نبي إلى آخر نبي، وإلى وقتنا الحاضر، يدرك أن حقائق الإسلام وأصوله لا تحتاج إلى دليل خارج عنها.. بدءاً بقضية الألوهية وأحقية الله بالعبادة، وأحقيته بالسلطان، ومن ثم تفرده بالتشريع والحاكمية، مروراً بقضية الجهاد التي

ينبني على قاعدة أن الأرض كلها لله ولا بد أن تخضع لله، وأن هذا الخضوع لا يمكن أن يأتي إلا بالجهاد، فيصبح أمر الجهاد أيضاً لإقرار ألوهية الله في الأرض بديهية واضحة، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. فتصبح قضية الجهاد وإقامة دين الله، بكل أسباب المجاهدة؛ من قول أو فعل، ومن سلاح وتخطيط، وأي شيء آخر، يصبح أيضاً قضية لا تحتاج إلى دليل من خارجها.

وإذا كنا نريد أن نحقق أمر الله في الأرض، وهناك من يرفضون هذا الأمر، ويقفون أمامه بقوة، وبكل أسباب المعارضة من فكر وتخطيط وصد وحرب ومقاتلة.. فإنه لا بد لفئة المؤمنين أن يواجهوا أعداءهم هؤلاء بكل هذه الأساليب، وبأقوى منها أيضاً إذا استطاعوا، ويصبح -بذلك- أمر الجهاد قضية بديهية، مبنية على بديهية أخرى، وتصبح قضية الجماعة بديهية كذلك، لأن الإنسان الفرد، أو الأفراد المفككين المتناثرين الذين لا تربطهم رابطة، ولا ينظم شأنهم منظم، ولا يتلمسون أسباب القوة من خلال اجتماعهم، لا يستطيعون أن يقيموا أمر الله، ولا أن يجاهدوا، فيصبح أمر التجمع، وأمر الجماعة مطلبا بديهيا لا يحتاج إلى أدلة من خارجه.

وليس هذا مخصوصاً بالإسلام، فأي صاحب فكرة يريد أن يقيمها في الأرض -سواء كانت حقاً أو باطلاً- لا بد أن يجاهد، ولا بد أن يقاتل أعداء هذه الفكرة، ولا بد أن يتغلب عليهم بالقوة وبالفكر والتخطيط و"التكتيك"، وبكل ما أوتي من قوة، ولا بد لأصحاب هذه الفكرة أن يكوّنوا جماعة متعاونة متكاتفة لكي تواجه الجماعة المقابلة التي تعارض هذه الفكرة، لأن هذا الأمر بديهي من مقررات الحياة الإنسانية، وليس فقط من مقررات الإسلام.

إنما الفارق هنا هو أن الإسلام يعطي هذا الأمر صفة شرعية، لأنه ليس كل تجمع مشروع، وليس كل جهاد مشروع، وليس كل فكرة أو هدف مشروع. فيصبح الجهاد الإسلامي، والجماعة المسلمة، والهدف إلى عبادة الله وإقامة دينه أمر مشروع، يستحق صاحبه عليه الثواب من الله، والنجاة من عذاب الله، ويستحق صاحبه المعية من الله سبحانه وتعالى.

أما الأفكار الأخرى الباطلة التي تعبّد الناس للطاغوت، والتي تنصب آلهة باطلة، والتي تجاهد في سبيل إعلاء كلمة هذه الآلهة الباطلة أو أنظمتها أو أفكارها أو أحكامها، أو الجماعة التي تتساند لكي تؤيد هذه الأفكار الباطلة أو الآلهة الباطلة.. هؤلاء بمعبوداتهم وبآلهتهم وبجهادهم وبتجمعهم وبحركتهم وبأخلاقهم. إنما يمثلون الباطل المقابل للحق الذي جاء من عند الله.

فالشرعية يكتسبها أولياء الله، لأنهم يقومون من أجل الله الذي يستحق العبادة، ويستحق الجهاد في سبيله، ويستحق أن يتجمع الناس حول ألوهيته، ويستحق أن يعبّد الناس بأحكامه وبشرائعه. أما الآلهة الأخرى فهي باطلة. ومن ثم يكون كل ما يتصل بها ويقوم على أساسها باطلا كذلك.

فمن ناحية الخطوات الإجرائية، أو الأساليب التخطيطية والتكتيكية فهي متشابهة بين الذين يريدون أن يحقوا الحق ويقيموه في الأرض، أو الذين يريدون أن يحقوا الباطل ويقيموه في الأرض. غير أن هؤلاء أولياء الرحمن، لهم شرعية الوجود، ولهم شرعية الثواب.. وأولئك أولياء الشيطان لا شرعية لباطلهم ولا شرعية لوجودهم.. ولا نصيب لهم في معية الله ولا ثوابه.

هذا هو الفرق.. وهو فرق ضخم جداً. أما الأساليب البشرية فهي أساليب واحدة؛ فمن يريد أن يقيم الباطل لا بد أن يحتاج هذا الباطل منه إلى جهد، ويحتاج إلى تخطيط، ويحتاج إلى مال، ويحتاج إلى رجال، ويحتاج إلى سلاح، ويحتاج إلى تضحيات، ويحتاج إلى من يضحي في سبيله ويقتل في سبيله، ويحتاج إلى تجمع يؤازره ويقويه.

والحق أيضاً يريد ذلك. فالفرق فقط في الغاية وفي الهدف، وفي نتائج هذا الحق ونتائج هذا الباطل، في الدنيا أو في الآخرة.

فهذه الحقائق لا بد أن تكون واضحة لنا ومستيقنة أيضا، والإنسان كلما تمعن في حقائق الأرض، وحقائق الوجود، وفي حقائق هذا الدين يكتشف أن هذه الحقائق لا تحتاج إلى كل هذا الجدل، ولا إلى كل هذا التعقيد، ولا إلى كل هذه الأدلة والاستدلالات. فهي قضايا بديهية.. إذا خاطبت عقلاً سليماً، يفكر بطريقة سليمة فإنه لا بد أن يسلم بها بلا دليل خارجي عنها. ولكن لأن الإنسان كان أكثر شيء جدلا، عنده استعداد للمغالطة، وعنده استعداد للجهل، وعنده استعداد لمبارزة الحقائق بأهوائه وبمزاجه، احتاج الأمر أن تقام الحجة على الناس بالبيان وبالدليل، ليس لأن الحق يحتاج إلى دليل، ولكن لكي تقام الحجة على الناس، ولكي يعان الذين يقعون تحت سلطان المبطلين وحججهم وآرائهم وإغوائهم وإرهابهم، فيحتاجون إلى البيان الشافي الذي يضيء بصائرهم بعد أن أعمى الكافرون والطواغيت أبصارهم وغشوا عليها، وألهوهم بزخارف القول، وبزخارف الشهوات.. فلم يعودوا يبصرون الحق أو يدركون البديهيات.. كالأعمى الذي لا يرى الشمس في ضوء النهار، فاحتاج أصحاب الحق أن يدعوا الناس ويبلغوهم.. وشاء الله برحمته وبفضله وكرمه أن يرسل الرسل وينزل الكتب، ويلهم المصلحين والدعاة أن يقوموا بأمر الدعوة إلى الله والبلاغ، لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل بعد إقامة الحجة وبيانها.. وليس ذلك لأن القضية معقدة، وليس ذلك لأن القضية ليست بديهية.. فالذي يحترم عقله، والذي يفكر بطريقة طبيعية وسهلة وفطرية لا بد أن يدرك الحق دون دليل خارج عن هذا الحق، لأنها بديهيات تلح على الإنسان وتفرض نفسها عليه إن كان مستعداً لقبول الحق وغير رافض له.

أما الذين يضعون أصابعهم في آذانهم، ويستغشون ثيابهم، ويردون أيديهم في أفواههم، فليس الذي ينقصهم هو الحجة. ولكن هؤلاء لا يريدون هذا الحق ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٣].. ﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ [النمل: ١٣].. فالآيات مبصرة، والقضايا ناطقة بالحق، ولكن الناس يبتعدون بأهوائهم وبشياطينهم عن الحق.

أما ما نريد أن نتحدث عنه الآن فهو قضية نسميها نحن "المرحلية". وقد جاء في صفات خصائص المنهج الحركي لإقامة الإسلام أنه؛ فوق أنه منهج جاد، فهو أيضاً ذو مراحل.

وتسمية هذه القضية "بالمرحلية" لعلها تسمية جديدة، ومصطلح جديد. قد غفل عنه كثير من الناس؛ سواء كانوا علماء، أو كانوا دعاة في هذا العصر الذي نعيش فيه.

وقضية المرحلية رغم بساطتها وبداهتها إلا أن الذين لم يلحظوها، لم يكن ذلك نتيجة جهلهم بالفقه الإسلامي وبطريقة تطبيق شرع الله عز وجل، وإنما غفلوا عنها بسبب جهلهم بالواقع وتشخيصهم الخاطئ لهذا الواقع، أو بسبب أنهم وقعوا في ظن أنهم مطالبون بكافة الأحكام النهائية مادام الإسلام قد اكتمل ووصل إلى صورته النهائية، فلم يعد لأحد أن يرجع خطوة إلى الوراء، ولا بد أن يبدأ خطوته لإقامة الإسلام من نقطة النهاية التي وصل إليها الإسلام أول مرة، باعتبار أن الإسلام قد تمت حجته وتمت أحكامه وتمت شرائعه، فيأخذون النصوص النهائية مع إغفال الواقع الذي يطبقون فيه هذه النصوص.

فهذه هي الأسباب التي جعلت كثيرا من العلماء وكثيرا من المفكرين وأصحاب الدعوة إلى الله لا يلتفتون إلى قضية المرحلية. وهي قضية جوهرية جداً، لأنها هي روح المنهج الإسلامي؛ سواء بعد إقامته وتمامه، أو حين ولادته ونموه المتطور. وهي قضية -في ذاتها- لا بد أن

تكون في وعي الذي يتفقه في دين الله، والذي يحتاج إلى استخراج الأحكام من الأدلة الأساسية.. فلا بد -لمثل هذا- أن يكون مدركاً لمعنى المرحلية، ولمفهوم المرحلية.

وهي أشد أهمية وأشد حاجة عند الذين يتعرضون لإقامة الإسلام مرة أخرى في واقع قد نحى الإسلام عنه، وأصبح واقعاً جاهلياً مرة أخرى. هؤلاء أحوج ما يكونون إلى إدراك معنى المرحلية، وإلى إدراك شرعية المرحلية، وإلى إدراك مجالات المرحلية، وكيفية التعامل مع هذه القضية المهمة.. لأنها قضية أساسية في رسم منهج الحركة، ومنهج التعامل مع الجاهلية، ومنهج بناء الجماعة، ومنهج العلاقات مع المعسكرات الأخرى وكيفية التعامل معها، ومع التكاليف الربانية أيضاً. فهي قضية من أخطر القضايا التي ينبغي أن يتسلح بها الذين يعرضون أو يتعرضون لدعوة الناس إلى الإسلام.

وسواء كانت الجماعة التي تريد أن تدعو للإسلام وتريد أن تصحح حياة الناس؛ سواء كانت جماعة إصلاح تريد أن تصلح ما وقع في المجتمع المسلم رغم قيامه ووجوده، أو كانت جماعة تجديد تريد أن تجدد الإسلام مرة أخرى رغم وجود جذوره الأساسية، مع اختفاء معظم حقائقه عن الحياة، أو كانت جماعة بعث تريد أن تبعث الإسلام مرة أخرى بعد أن اختفى تماماً من الواقع.. أيٌ من هذه الجماعات، أو أيٌ من هذه الحركات يحتاج إلى فهم قضية المرحلية. وحتى الفقيه في الدولة المسلمة في أعظم أوقاتها يحتاج إلى فهم المرحلية، لأن المرحلية ستحل له المشكلات التي يواجه فيها أوضاعاً غير طبيعية أو مواقف غير طبيعية، فلا بد أن يدرك روح المرحلية لكي يتعامل مع النصوص التشريعية.

وسوف نجد أن سلفنا الصالح من العلماء والفقهاء قد أدركوا هذه الفكرة تماماً، وعبروا عنها تعبيراً دقيقاً، وإن لم يستعملوا مصطلح المرحلية، ولكنهم استعملوا مصطلحات أخرى مثل؛ مصطلح الضرورة، أو مصطلح المصلحة وضوابطها، أو بعض المصطلحات الأخرى التي سوف نتعرض لها حينما نتكلم عن رؤية السلف وفقهاء السلف لقضية المرحلية. فهي ليست قضية جديدة في ذاتها، ولكنها كشف جديد للذين لم يكونوا على علم بها. لكن القضية قد تناولها السلف وتعاملوا بها، وأفتوا على أساسها.. وكانوا على علم واع ودقيق بقضاياها وروحها وضوابطها أيضاً.

فكما قلت نحن لا نتكلم عن قضايا جديدة كل الجدة، ولم نخترع قضايا لم تكن موجودة من قبل.. وإنما نحن -في محاولة إعادة بعث الإسلام من جديد- نحاول أن نفتش عن كل شيء يتصل بهذا الإسلام، ويتصل بمنهج العمل والبناء والحركة وإقامة هذا الدين.. فنكتشف أن كل ما نريده موجود -والحمد لله- في فكر السلف الصالح؛ سواء كانوا صحابة، أو تابعين، أو تابعي التابعين، أو من العلماء الذين كان لهم باع كبير في الفقه الإسلامي في أوقات مختلفة وفي عصور مختلفة.

المرحلية الذي نقصدها عبر عنها الأستاذ سيد رحمه الله بقوله: **"السمة الثانية في منهج هذا الدين: هي الواقعية الحركية.. فهو حركة ذات مراحل، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها الواقعية، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها، فهو لا يقابل الواقع بنظريات مجردة. كما أنه لا يقابل مراحل هذا الواقع بوسائل متجمدة.."** هذا هو المقصود بأنه منهج ذو مراحل؛ أنه وهو ينطلق من السفح إلى القمة، أو من نقطة البداية إلى نقطة النهاية يمر بمراحل متعددة، وكل مرحلة لها مقتضياتها الخاصة، ولها أحكامها التي تتفق معها، وتستجيب لحاجات هذه المرحلة.. ولذلك لا بد من أن يكون للجماعة المسلمة فقهها الحركي الذي

يمشي متواكباً مع طبيعة المرحلة وأهدافها وحاجاتها، وأيضاً مع عقبات المرحلة، وكل ما تستلزمه هذه المرحلة من إدراك وفقه، لكي تستخرج من شريعة الله الأحكام التي تتفق مع هذه المرحلة، وتستجيب له.

هذا هو المقصود بقضية المرحلية التي نحن بصددها.

أهمية تشخيص الواقع في قضية المرحلية

إن الذين يعملون للإسلام اليوم يفترضون أن الواقع الموجود هو واقع مسلم، وأن مهمتهم إصلاحية بحتة، وبالتالي هم ملزمون، بأن ينادوا إلى تحقيق الإسلام بصورته التي انتهى إليها، ولا يحتاجون إلى فقه جديد، لأن الإسلام قائم والمسلمين يملؤون الأرض والدار بمن فيها دار مسلمة.. فهم لا يفهمون المرحلية ولم يلحظوها على الإطلاق، ويضطرون إلى الخروج عن المنهج الصحيح نتيجة جهلهم هذا بالواقع، أو نتيجة إعطاء الواقع ابتداء صفة الإسلام، وبالتالي لا يبدؤون مع الناس من نقطة البدء الصحيحة، ثم يتدرجون بهم التدرج الطبيعي، ولكن يخاطبونهم على أنهم مسلمون.. في الوقت الذي الناس فيه في واد وهم في واد آخر.. وهؤلاء منهم من يضطرون -كما رأينا من خلال الواقع- إلى تغيير مناهجهم في كل فترة لكي يبحثوا عن وسائل للوصول إلى الهدف الذي لا يصلون إليه أبداً، حتى ولو كانت هذه الوسائل مناقضة لروح الإسلام ولجوهر الإسلام ولجوهر العقيدة التي يدعون إليها، أو لجوهر الشهادة التي يريدون أن يقيموها في الواقع.. وهذا يتبين من خلال علاقتهم بالحكومات، وتفاوضهم مع الطواغيت، ومجاملتهم لحكومات الجاهلية، أو دخول المجالس التشريعية، أو قبول كثير جداً من عادات وتقاليد الجاهلية.. كل هذا على حساب جوهر الإسلام وجوهر العقيدة وجوهر الشريعة، وعلى حساب الشهادة التي ينبغي أن يقوموا بها.

ومنهم من يأخذون بأسلوب المواجهة النهائية التي أمر الله عز وجل بها رسوله ﷺ في المراحل الأخيرة؛ وهي جهاد وقتال كل من في الأرض بكل الوسائل. فهؤلاء أيضا قد حمَّلوا أنفسهم ما لا يطيقون واصطدموا مبكراً بالسلطة المعادية في وقت لم يستعدوا لها. وفي نفس الوقت -وهو الأهم- أنهم غبَّشوا على الناس القضية الأصلية بإشغالهم الناس بقضايا الجهاد والقتال والاغتيالات وغيرها.. مما جعل الناس يرون من الإسلام ذلك الوجه الذي يبدو -في غير وقته- كالحاً وصاداً عن سبيل الله. ويستغل الأعداء هذا الخطأ ليشوهوا به صورة الإسلام، وينفروا الناس عن الإسلام مستغلين ذلك الخطأ الكبير. وبهذا يصبح هؤلاء قد صدوا عن سبيل الله، دون أن يعوا أنهم يفعلون ذلك، وذلك في الوقت الذي يريدون فيه أن يرضوا الله عز وجل.

ولا شك أن الفئة الأولى أيضاً تصد الناس عن سبيل الله بأن يجعلوا الإسلام مرناً إلى درجة التميع، ومستعدا أن يقبل أي وضع مهما كان منافياً للإسلام مادام الذين يقومون به يزعمون أنهم مسلمون. هؤلاء وهؤلاء لا شك يصدون عن سبيل الله، ويضعون عقبات كبيرة جداً أمام أهل الحق الذين يعرفون الحق ويلتزمون منهجه.

أما الذين يختارون الطريق الصحيح فهم الذين يشخصون الواقع تشخيصاً صحيحاً، على أساس فهمهم الصحيح لمعنى لا إله إلا الله. فحينما يفهمون معنى لا إله إلا الله تماماً يدركون أن الواقع البشري الآن في كل مكان لا يدين بالإسلام، أياً كان نوع المجتمعات وألوانها؛ سواء كانت شيوعية أو كانت رأسمالية، أو كانت مجتمعات وثنية، أو كانت حتى مجتمعات ترفع ادعاء الإسلام لكنهم في الواقع لا يحكّمون الله عز وجل في أي أمر من أمور حياتهم، ويتبعون الطاغوت، ويحاربون أولياء الله، ويصدون عن سبيل الله، ويستهزئون بدين الله

وبأحكام الله.. فكل الأرض الآن ارتدت إلى الجاهلية التي كانت، أو التي يرتد إليها الناس كلما بعدوا أو كلما انحرفوا، وكلما تركوا شريعة الله.

فأهل الحق يرون الواقع بهذا الشكل الواضح؛ فالناس جميعهم إلا من كفر بالطاغوت وشهد ألا إله إلا الله بمعناها الحق ليسوا على الإسلام لا فرق في ذلك بين حاكم ولا محكوم ولا مثقف أو أمي، وبذلك أدركوا أنهم يقفون في نفس النقطة التي يقف عندها الأنبياء حينما يأتون إلى قومهم يدعونهم إلى لا إله إلا الله ليخرجوهم من الشرك إلى التوحيد، ومن الكفر للإيمان، ومن عبادة الطاغوت إلى عبادة الله وحده سبحانه وتعالى. فالذين يقفون هذا الموقف يعرفون أنهم -بطبيعة الحال- لا بد أن يبدؤوا من نفس البداية التي بدأها الأنبياء.

معنى المرحلية

ولا شك أن التجربة المتكاملة والتي بقيت محفوظة لتكون دليلاً للناس أمامهم ليوم القيامة هي التجربة الأخيرة التي قام بها رسول الله ﷺ باعتباره خاتم الأنبياء، فأمضى الله على يديه حقيقة هذا الدين متكاملة؛ تصوراً ومنهجاً وحركةً وسلوكاً وأخلاقاً.. فأصبحت هذه هي التجربة الرائعة الوحيدة التي ينبغي على المسلمين أن يحذوا حذوها، وأن يرتبطوا بها ارتباطاً كاملاً، ويخطوا خطواتها التي خطتها. فكما أن الرسول ﷺ بدأ من نقطة الصفر حتى وصل إلى نقطة النهاية، فكذلك أي حركة تقوم الآن لا بد أن تبدأ نفس البداية لتصل إلى نفس النهاية إذا شاء الله، مارة بكل المراحل التي مر عليها رسول الله ﷺ، وهم لذلك أحوج الناس إلى أن يدركوا مفهوم المرحلية كما طبقه رسول الله ﷺ منذ أن بدأ يدعو الناس سراً في مكة إلى أن فتح مكة وتحقق النصر الإسلامي في النهاية، وبعد أن مد الله عز وجل الإسلام إلى أقاصي المعمورة التي كانت موجودة في وقتها.

فالمرحلية هنا تعني؛ كيف نتعرف على مراحل الإسلام وحركة الإسلام، وكيف طبقها رسول الله ﷺ. وكما رأينا في النص الطويل الذي جاء به الأستاذ سيد في أول فصل الجهاد كيف يتحدث ابن القيم رحمه الله عن بداية حركة رسول الله ﷺ الجهادية.. فكانت بدايته بأن نبأه الله عز وجل بـ "اقرأ"، وأرسله بـ "المدثر"، ثم دعا الناس سراً، ثم أعلن ذلك بقول الله ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر: ٩٤] بعد أن أنذر عشيرته الأقربين قبل ذلك، ثم إعلان هذه الدعوة بمراحلها المختلفة في مكة في حالة الاستضعاف، وقول الله وأمره للمسلمين بأن يكفوا أيديهم، ثم بعد ذلك حدثت الهجرة التي بدأت معها الخطوات الإيجابية أو الخطوات العملية في أمر القتال، فأذن للمسلمين بالقتال، ثم أذن لهم بأن يقاتلوا من قاتلهم، ثم بعد ذلك أمروا أن يقاتلوا كل أهل الأرض ليكون الدين كله لله.

فهذا النص أعطى صورة للمرحلية في باب الجهاد.

ولكن المرحلية ليست فقط وقفاً على باب الجهاد.. فهي تتناول حياة المسلمين كلها. وكما سنوضح فيما يلي من الحديث؛ كيف أنها تناولت كثيرا من الفروض والواجبات أو المنهيات في الإسلام.. وسنوضح كيف سارت كل هذه الأمور على منهج المرحلية الذي لا بد وأن يدركه وأن يفقهه الذين يريدون أن يبعثوا الإسلام من جديد.

فهذه هي الفكرة العامة لقضية المرحلية.

وننتقل بعدها إن شاء الله لنتحدث عن هذه المرحلية بعرضها وأدلتها المستقاة من حركة رسول الله ﷺ، ومن خلال فقه الإسلام وفِقه السلف الصالح من المسلمين.

تطبيق المرحلية لا يعني التنازل

حينما نتحدث عن المرحلية نريد أن نلفت النظر إلى نقطة شديدة الأهمية، وهي أننا حينما نضطر، أو تضطر الجماعة المسلمة أو الفرد المسلم، في طريق البناء العظيم لإقامة الإسلام ومن خلال خطواته وتداعيات هذه الخطوات، وفي طريقه إلى القمة -كما سنقول- حينما نضطر إلى أن نتعامل مع أحكام المرحلية يجب أن ندرك أنها هي في حقيقتها الحكم الشرعي الصحيح لهذه المرحلة، فكل حكم تقتضيه المرحلة أو كل فقه تقتضيه المرحلة هو -في الحقيقة- الفقه المشروع والمطلوب لهذه المرحلة، وهو بهذه المثابة يكون هو الذي يحقق عبودية الجماعة وعبودية الفرد لله في هذه المرحلة من خلال الالتزام بهذا الحكم المرحلي الذي اهتدى إليه الفرد المسلم، أو اهتدت إليه الجماعة المسلمة عن طريق كل أسباب الاجتهاد.

والذي أريد أن أنبه عليه هو أن إحساس المسلم وهو يطبق هذا الحكم المرحلي لا بد أن يكون إحساساً واعياً أنه يحقق العبادة لله، وأن هذا الحكم المرحلي -وإن كان دون الحكم النهائي؛ سواء في الدرجة، أو في النوع، أو حتى في الشكل- لا يعني نوعا من التنازل، أو نوعا من التفريط، أو نوعا من التساهل، أو نوعا من المخالفة.. وإنما يجب أن يكون إحساس المسلم وهو يفعل ذلك أن هذا هو المطلوب الآن في هذه اللحظة، وأن هذا هو الحكم الشرعي الذي يعبد به الله سبحانه وتعالى، ومن ثم يكون قد أخذ بالإحسان في هذه المرحلة، بصرف النظر عن شكل الحكم أو درجته أو نوعه، لأنه هو الحكم الذي يتناسب مع المرحلة، والذي تقتضيه المرحلة. والإنسان في هذه اللحظة يكون في نفس موقف الصحابة حينما كانوا في نفس هذه المرحلة، ولم يكن قد تنزلت عليهم الأحكام التي تلت هذه المرحلة. فحينما كانوا في هذه المرحلة كان هذا هو سقف الأحكام الشرعية بالنسبة لهم، وكانوا يحسون أنهم استجابوا استجابة كاملة لما يريده الله منهم بطبيعة أن هذا هو الحكم الذي أنزله الله عليهم في هذه المرحلة.

وحينما تقف الجماعة المسلمة المعاصرة، أو الفرد المسلم المعاصر، ويرجع إلى هذه المرحلة بطبيعة التطور الطبيعي للجماعة المسلمة في مراحلها المختلفة لا بد أن يتخيل هذا التخيل؛ أنه في نفس المرحلة التي كان يقف فيها الصحابة، ومن ثم فإن الشعور الذي ينبغي أن يملأ نفسه هو شعور الاستجابة الكاملة لله من خلال هذا الحكم المرحلي.. لأنهم في واقعهم القديم كان هذا هو كل ما عندهم من الأحكام، وكان هذا هو آخر حكم وصل إليهم.. وقد كان الله سبحانه وتعالى هو الذي ينزل عليهم الأحكام بعلمه حسب حاجاتهم وحسب واقعهم وحسب المرحلة التي هم فيها، فالله سبحانه هو الذي كان يدير المعركة، وهو الذي كان ينظم حياة المسلمين التشريعية، وهو الذي كان يعلم حاجات الجماعة المسلمة في هذه المرحلة التي يمرون بها، فكان هذا الحكم الذي يمارسه الصحابة باعتبار أن هذا آخر ما أمروا به، وهذا أعلى ما أمروا به.

كذلك ينبغي للمسلم المعاصر والجماعة المعاصرة أن تجتهد كل الاجتهاد، وأن تتحرى كل التحري، بمنتهى التجرد وبمنتهى الصدق والإخلاص والعلم لكي تصل إلى الحكم المناسب للمرحلة. فإذا انتهت إلى أن هذا هو الحكم المناسب للمرحلة يكون هذا هو الحكم في حقها، وهو الحكم الذي يتعبدون به الله، وتكون هي في مقام الإحسان حينما تفعل ذلك. فلا يأتي في نفس أحد من الناس أن هناك تقصيراً أو تكاسلاً أو تساهلاً أو تفريطاً أو مخالفة.. وهذه نقطة مهمة جداً لا بد أن يستصحبها الفرد المسلم والجماعة المسلمة في صعودهم إلى القمة. وكلما صعدوا خطوات جدّت لهم حاجات، وجدت لهم نظرات، وجدت لهم أحكام تتناسب مع موقعهم الجديد. فإذا وصلوا إلى القمة سوف يجدون أنفسهم قد وصلوا إلى نقطة الأحكام النهائية بطبيعة النمو المتنامي الطبيعي، والله أعلم.

التدرج في الشريعة الإسلامية

وحينما نريد أن نتحدث عن المرحلية لا بد أن يسوقنا هذا إلى حديث عن التدرج في الشريعة الإسلامية، وأنواع هذا التدرج، ومجالاته. وسنتحدث أيضاً عن القضايا التي مارس فيها المسلمون هذا التدرج التشريعي وهذا التدرج التطبيقي، ونضرب أمثلة لكل نوع من هذه الأنواع، بحيث تبدو لنا -في نهاية الحديث- قضية التدرج أو قضية المرحلية قضية فوق بداهتها وفوق ضرورتها وفوق واقعيتها التي قد تلزم الإنسان بها حتى ولو لم يكن عنده أي فقه بالنسبة لها.. قضية تحمل بصمات الشريعة كاملة واضحة، وتحمل روح الشريعة بشكل واضح، وتحقق للجماعة المسلمة أمنها النفسي وأمنها الحركي وأمنها التشريعي، بحيث تسير على نور من الله في كل خطوة من خطواتها، وهي مطمئنة أنها تؤدي مطلب الله عز وجل منها في كل وقت وفي كل حين، هذا أمر مهم جداً أن ندركه من خلال الاستدلالات الشرعية، لكي نكون على يقين من هذه القضية التي نمارسها ليل نهار في حياتنا، طالما نحن مستضعفون في هذه الجاهلية، وطالما لم نملك السلطان بعد، ولا نستطيع أن نطبق شريعتنا بالحرية الكاملة. فنحن تحت ظل الجاهلية مضطرون إلى فقه المرحلة، وفقه المراحل، وكيف ننتقل من مرحلة إلى أخرى، وما هي مقتضيات كل مرحلة، وما هي الأدلة الشرعية على ذلك إن شاء الله تعالى.

حينما نتحدث عن المرحلية -فكما قلت- سنجد أنها مرتبطة ارتباطاً وثيقا بالتدرج في التشريع. فلا شك أنه هو المثل العملي والتاريخي الواقعي الذي نتعلم منه قضية المرحلية من خلال التتبع لحركة الجماعة المسلمة الأولى، وكيف أن كل أحكامها كانت متدرجة، وكان القرآن -كما نعلم جميعاً- ينزل منجماً ومتناسباً مع ظرف وحاجة الجماعة؛ سواء وهي في مكة، أو وهي في المدينة بعد ذلك.

ونحن متفقون على أن الفترة المكية كانت تتميز بالتركيز على العقيدة، وعلى كل ما ينبثق من العقيدة من أخلاق وسلوك. فكان التركيز كاملاً على قضية الاعتقاد. ولم يبدأ تفصيل الأحكام والتكاليف إلا بعد أن انتقلت الجماعة المسلمة من مكة إلى المدينة.

وفي مكة.. جاء في القرآن المكي إشارات لأصول التكاليف.. ولكنها كانت تأتي إما كإشارات عابرة، أو كحقائق مجملة.. ولكن التفصيلات لم تتضح إلا حينما هاجر المسلمون إلى المدينة. وقلنا إن هذا أمر طبيعي يتماشى مع نظرة الإسلام الجادة، فالتفاصيل أو القوانين المفصلة لا بد أن تقوم بها جماعة ذات سلطة على واقعها. وبما أن الجماعة المسلمة في مكة لم تكن لها سلطة ولم تكن صاحبة قوة فكان من الصعب.. بل من المستحيل أن تستطيع أن تنفذ الأحكام وتقيمها في بلدٍ السلطةُ فيه بيد الكافرين.

وثمة حكمة أخرى أيضاً -تحدثنا عنها حينما تكلمنا عن طبيعة المنهج القرآني- وهي أن الإسلام يقرر أن العقيدة هي الأصل، وأنه لا بد من أن يتعرف الناس إلى ربهم سبحانه وتعالى، وأن تتعمق في نفوسهم الخشية من الله والهيبة من الله وتوقير الله سبحانه وتعالى، والاعتزاز بالانتساب إلى الله.. فإذا تعمقت هذه الأمور في القلب البشري كان يسيراً عليه أن يستجيب لأي تكليف مهما كان.. ليس فقط كأمر مصلحي، ولكن كعبادة لله عز وجل.. فلذلك كان من الطبيعي أن يتم التركيز على العقيدة في الفترة المكية. وهو -أيضاً- أمر يتصل بمعنى التدرج، وبمعنى المرحلية، فبناء العقيدة أساس ضروري لبناء أو اكتمال البناء الإسلامي.

ولذلك لا بد أن يكون بناء العقيدة هو الخطوة الأولى في إقامة الحركة الإسلامية. وهو تدرج -أيضاً- منتظم وطبيعي أن نهتم بإقامة الأساس وتعميقه وترسيخه، ثم بعد ذلك نقيم على هذا الأساس بقية البناء. وهذا أمر غير مستغرب، نمارسه في حياتنا الواقعية؛ أن نبدأ دائماً

بالأسس قبل أن نبدأ بالفروع أو بالأشياء التي تنبني على هذه الأسس، سواء كان ذلك في البناء والعمارة، أو كان في التعليم. فلا بد أن نعطي الطالب القواعد الأساسية لأي مادة أو لأي علم قبل أن نطالبه بفرعيات هذا العلم.

وكذلك بالنسبة لإقامة الإسلام.. كان لا بد أن نؤسس ونقيم العقيدة قبل أن نبني عليها بقية البناء.. وهذا يتمشى -أيضاً- مع روح المرحلية ومع روح التدرج الذي هو أمر واضح جداً في الجماعة المسلمة الأولى التي نزل عليها الإسلام أول مرة.

ولعل هذا أيضاً يتمشى مع طبيعة الحياة. والحياة تبدأ دائماً من الضعف، ثم تصل إلى القوة. فالإنسان كائن حي. وكأي كائن حي يبدأ ضعيفاً من نقطة البذرة الأولى، ثم يتطور حتى تتكامل شخصيته ويصل إلى درجة النضج.

والأمم والشعوب والجماعات -أيضاً- أشبه ما تكون بالكائنات العضوية؛ تبدأ واهنة ضعيفة، ثم يشتد عودها مع الزمن ومع التطور، ثم تصل إلى قمة نضجها ورشدها مع الزمن. فسنة الله سبحانه وتعالى هي التدرج في الشعوب والأمم والمجتمعات، وفي الكائنات الحية والكائنات العضوية، وأيضاً في بناء الأشياء المادية.

فسنة التدرج سنة عامة، وسنة كونية. ومن ثم لم يكن مستغرباً أن تكون تلك السنة أيضا -سنة التدرج- في التكاليف وفي التشريع وفي التربية وفي العلاقات.. فتبدأ تلك الأمور من نقطة الصفر وحتى تصل إلى نقطة النهاية.

وإذا تتبعنا قضية التدرج -أو قضية المرحلية- سنجد أن هناك تدرجا في التشريع، وتدرجا في التطبيق[٤]. والتدرج في التشريع أمر متفق عليه وواضح لا يحتاج إلى دليل خارجي، لأن أحكام القرآن كلها لم تنزل إلا منجمة ومتدرجة.. وبدأت مع نبوة الرسول ﷺ.

أما التدرج في التطبيق فهو الذي يحتاج إلى بحث أو نظر..

أنواع التدرج في التشريع

التدرج التشريعي كان على أنواع متعددة:

إما التدرج بذكر الأحكام بشكل كلي دون تفصيلات.

وإما التدرج في التشريع في جملة الأحكام نفسها.

فالشريعة لم تنزل كلها مرة واحدة.. أو كما يسميه الشيخ الدكتور علي عبد الجبار -في بحثه "التدرج" المنشور في مجلة الأزهر- "التدرج الكمي"، بمعنى أن الكمية ظلت تزداد مع مرور الزمن، ومع تنزل الوحي. فقد بدأت كمية الأحكام صغيرة، ثم ظل يُضاف إليها الأحكام حتى اكتملت في النهاية.. فهذا تدرج كمي.

٤ انظر -إن شئت- بحث التدرج في التشريع مفهومه ومجالاته وأنواعه. نشر في مجلة مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي جامعة الأزهر. العدد الثاني. وبحث التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية بالمقابلة بالتدرج في التشريع. نشر في مجلة الجامعة الإسلامية الصادرة عن رابطة العالم الإسلامي. العدد ٣٩. وكلاهما للدكتور علي عبد الجبار السروري. ونحن سنعرض في حديثنا عن التدرج كل ما جاء في هذين البحثين تقريباً.

أما النوع الأول من التدرج في التشريع فيقصد به أن الحكم يأتي مجملاً دون تفصيل، مثل أن يأتي تنويه إلى الأخلاق أو النهي عن الزنا، دون أن يتحدث عن تفصيلات الزنا وحكمه وعقوباته، أو يتحدث عن الحق في المال والصدقة دون أن يتحدث عن الزكاة وأنصبتها، أو يتحدث عن أشياء كثيرة مثل الصلاة دون أن يكون هناك تفصيلات عن هذه الصلاة، أو يتحدث عن القتال دون أن يتحدث عن أنواع القتال أو مراحله أو أساليبه.. وهكذا.

فالتدرج الأول -أو النوع الأول من التدرج- هو ذكر جملة الحكم بغير تفاصيله.

أما النوع الثاني -التدرج الكمي- فالمقصود به هو تكاثف وتراكم الأحكام الشرعية كمّاً مع نزول الوحي، فكانت الأحكام في أول أمرها قليلة، ثم تزداد كمّاً مع مضي الزمن.

والنوع الثالث: هو "التدرج الكيفي"؛ وهو تدرج الحكم الواحد. فالحكم الواحد تدرج في صور مختلفة وبأشكال مختلفة، حتى وصل إلى صورته النهائية، ونحن نعرف أمثلة لهذا الأمر؛ كالخمر -مثلاً- لم تحرم مرة واحدة، وإنما حرمت على عدة مراحل، ففي أول مرة ذكر ما يشي بأن الخمر شيء غير طيب وذلك في آية سورة النحل ﴿ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل: ٦٧].. فهناك تفريق بين السَكَر وبين الرزق الحسن، فكأنّ السكر مقابل للرزق الحسن، وهذا إشعار من بعيد إلى أن الخمر ليس أمراً طيباً.

ثم كان الأمر الثاني -أو المرحلة الثانية- وكان أشد صراحة وذلك في قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ [البقرة: ٢١٩].. فهي إثم، وكبير، دون أن تكون هناك منافع كبيرة.. فالإثم هنا كبير، والمنافع ذكرت دون وصف لكمياتها أو قيمتها، وهذا يدل على أنه إثم. وكلمة إثم في طبيعتها تخيف الإنسان المسلم المؤمن، ثم إنه إثم ليس صغيراً، وإنما إثم كبير، وهذا لكي يشيع في النفوس المؤمنة في المجتمع المسلم الشعور بأن هذا الأمر ينبغي أن يفكر فيه المسلم وأن يعرف أنه سيكون فيه حكم آخر، أو إلغاء.

ثم جاء ما يشي بالوصول إلى مرحلته النهائية، ولكن قبلها بخطوة، منع المسلمين أن يصلوا وهم سكارى، ولذلك كانوا -نتيجة لتقارب أوقات الصلوات- لا يستطيعون أن يشربوا الخمر بين صلاة الظهر والعصر، أو بين العصر والمغرب، أو بين المغرب والعشاء. فهذه الفترات كانت فترات متقاربة جداً، فاضطروا أن يتوقفوا عن الشرب في هذه الفترات. بينما الفترة ما بين العشاء والفجر، أو ما بين الفجر والظهر كانت طويلة، وهي بطبيعتها إما وقت نوم أو وقت شغل وعمل، فيقل فيها التفرغ لممارسة هذه العادة. فكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعودهم ألا يشربوا كثيراً، فتنتهي من دمائهم هذه الرغبة، وتخلو أعصابهم من الإلحاح الذي تحدثه أي عادة من العادات.

ثم جاء في النهاية الأمر النهائي ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١]

فهذا نوع من التدرج الكيفي الذي حدث في الخمر. وحدث أيضاً في أمر القتال كما رأينا.. بدأ بـ ﴿ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ﴾ [النساء: ٧٧] وانتهى تبعاً للمراحل الكثيرة التي تحدثنا عنها سابقا بأمره تعالى ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً ﴾ [التوبة: ٣٦] كي يكون

الأمر كله لله عز وجل ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]، فمر بالمراحل التي ذكرها ابن القيم، والتي نعرفها من خلال السيرة ومن خلال القرآن.

وفرضية الصلاة، كان فرض الصلاة قد بدأ ركعتين في الغداة وركعتين في العشي، فكانت -فقط- مرتين في اليوم، وكانت ركعتين فقط، ثم بعد ذلك زيدت في الإسراء والمعراج؛ زيدت بعضها لتكون رباعية، وثبتت صلاة السفر، وصلاة الفجر ظلت كما هي ركعتين، ثم كان المغرب ثلاث.. فهذا أيضاً كان تدرجاً في الصلاة وفي شكل الصلاة وفي أوقات الصلاة كيفاً وشكلاً.

والميراث أيضاً حدث فيه تدرج كيفي؛ فبعد أن كان يتم بحق الأخوة الإيمانية، انتقل بعد ذلك إلى الصورة الطبيعية، وهذا كله يعني أن هناك تدرجاً كيفياً.

الحكمة من التدرج التشريعي

أما بالنسبة للحكمة في التدرج التشريعي.. فهناك حكم نستطيع أن نعرفها، وأخرى لا نعرفها، وعلمها عند الله. ولكن هناك خمس حكم نستطيع أن نستخرجها لهذا الأمر:

أولاً: أخذ الناس بالرفق:

فالله عز وجل رحيم بعباده فالتدرج في التطبيق والتشريع كماً وشكلاً ونوعاً فيه رفق بالناس، ينقل خطواتهم كما تنقل طفلك الصغير لكي يستكمل نموه، فتأخذه برفق حتى يصل إلى نقطة النضج أو نقطة النهاية. فأخذ الناس بالرفق أمر من طبيعة هذا الدين، والله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

فالحكمة الأولى هي أخذ الناس بالهوادة والرفق، والبعد بهم عن غوائل الطفرة والعنف سواء في ذلك ما مرد عليه الناس من باطل، وبناء ما لم يحيطوا بعلمه من حق. فسواء كان التدرج بانتشال الناس من عاداتهم السيئة، أو في تكليفهم بتكليفات حقة ونافعة لهم، ففي كلا الأمرين يحتاج الأمر إلى الرفق والأخذ بالهوادة لكي يستطيعوا أن ينتقلوا من مرحلة إلى مرحلة. ونحن نعرف ما يقوله الأستاذ سيد عن هذا المعنى في مقدمة الظلال، فهو يقول: "إن المنهج الإلهي موضوع للمدى الطويل الذي يعلمه خالق هذا الإنسان ومنزل هذا القرآن، ومن ثم لم يكن معتسفاً ولا عجولاً في تحقيق غاياته العليا من هذا المنهج، لأن المدى أمامه ممتد فسيح، لا يحده عمر فرد ولا تستحثه رغبة فان ولا يخشى أن يعجله الموت عن تحقيق غاياته البعيدة، كما يقع لأصحاب المذاهب الأرضية الذين يعتسفون الأمر كله في جيل واحد، ويتخطون الفطرة المتزنة الخطى، لأنهم لا يصبرون على الخط المتزن. وفي الطريق العسوف التي يسلكونها تقوم المجازر وتسيل الدماء وتتحطم القيم وتضطرب الأمور، ثم يتحطمون هم في النهاية، وتتحطم مذاهبهم المصطنعة تحت مطارق الفطرة التي لا تصمد لها المذاهب المعتسفة. فأما الإسلام فيسير هيناً ليناً مع الفطرة، يدفعها من هنا، ويردعها من هناك، ويقومها حين تميل.. ولكنه لا يكسرها ولا يحطمها.. إنه يصبر عليها صبر العارف البصير الواثق من الغاية المرسومة، والذي لا يتم في هذه الجولة يتم في الجولة الثانية أو الثالثة أو العاشرة أو المائة أو الألف، فالزمن ممتد، والغاية واضحة، والطريق إلى الهدف الكبير طويل.. وكما تنبت الشجرة الباسقة وتضرب بجذورها في التربة وتتطاول فروعها وتتشابك، كذلك ينبت الإسلام ويمتد في بطء وعلى هينة وفي طمأنينة، ثم يكون دائماً ما يريده الله أن يكون".

فهذا منهج الإسلام في عملية التدرج التشريعي؛ أن يكون هادئاً رفيقاً، يتدرّج بالناس، وينقل خطواتهم بصبر ويقين.

الحكمة الثانية: وهي أن تدرج الأحكام أدعى إلى قبول الناس لها:

ويقابلنا في هذا قول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حيث قالت: (إنما نزل أول ما نزل -تعني القرآن- سور من المفصل فيه ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا لا ندع الخمر أبداً.. ولو نزل لا تزنوا لقالوا لا ندع الزنا أبداً، لقد نزل بمكة على محمد صلى الله عليه وسلم وإني لجارية ألعب ﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴾ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده)[٥].. تعني أن الذي نزل في أول الأمر كان تربية للعقيدة، وتخويفا باليوم الآخر، ثم بعد ذلك بمدة طويلة نزلت آيات الأحكام التي في سورة البقرة والنساء.

فهنا تقرر أم المؤمنين أن تدرج الأحكام وبناء الأساس العقيدي وربط الناس بالله عز وجل كان ضرورياً، لأنه لو جاء التكليف أول ما سمع الناس بالإسلام لما التزموا ولما سمعوا ولما أطاعوا، ولما اهتدوا ولما آمنوا، وتكون العاقبة خسارة على الجميع. ولذلك كان تأسيس اليقين أولاً أمراً ضرورياً قبل أن تكلف هذه النفوس. والله عز وجل يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير، يقول الأستاذ سيد "إن هذا الدين لا يغفل واقع الناس عندما يريد أن يرفعهم إلى القمة السامقة التي شاء أن يتربعوا عليها.. لا يغفل أنهم بشر لهم شهوات وميول، كما لا يغفل تعلق الكائن البشري بما ألف واعتاد، ومن ثم فهو لا يقهرهم قهراً على ترك ما ألفوه، وإنما يجعلهم -بغرس الإيمان في قلوبهم، وتصحيح نظرتهم للأشياء- يعيدون تقييم ما ألفوه، فيتمسكون بالحق وينبذون الباطل، رضاً وطواعية لا قسراً وجبراً".

إن هذا الدين حريص على أن يملك القلوب، لا أن يسيطر على الأجساد، ومن ثم فهو لا يترك سبيلاً لتحقيق غايته هذه إلا سلكها -ما لم تكن إثماً- وإن من أهم تلك السبل التيسير على الناس.

فلا شك أن القهر لا يصنع إيماناً حقيقياً، ولا يكوّن قلوباً صادقة، وإنما أقصى ما يفعله هي صورة الاستسلام الظاهري المكره المجبور، والله عز وجل يريد من الناس أن يعبدوه عن رضى وعن إيمان وعن يقين. فلذلك كان لا بد أن تتدرج الأمور حتى يتقبل الناس الأمر برفق وسلام..

عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن أعرابياً بال في المسجد فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ (دعوه وأهريقوا[٦] على بوله ذنوباً[٧] من ماء -أو سجلاً[٨] من ماء- فإنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا مُعسِّرين)[٩].

---

٥ البخاري.

٦ أهريقوا: أريقوا، والهاء مبدلة من الهمزة.

٧ الذنوب: الدلو العظيم، وقيل لا تسمى بذلك إلا إذا كان فيها ماء.

٨ سجلاً: الدلو.

٩ أخرجه البخاري في كتاب الأدب، باب قول النبي ﷺ (يسروا ولا تعسروا)، وكان يحب التخفيف واليسر على الناس، انظر: صحيح البخاري مع الفتح ج١ ص ٥٢٤.

وعن أبي موسى الأشعري -رضي الله عنه- قال: لما بعثه رسول الله ﷺ ومعاذ بن جبل قال لهما (يسرا ولا تعسرا وبشرا ولا تنفرا وتطاوعا)[10].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين قط، إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه"[11].

فلا شك أن هذا كله دليل على حرص الإسلام على الرفق وعلى التيسير. ومن أهم صور التيسير التدرج في الأمر، وتعليم الناس الحكمة من وراء ذلك. ونحن نعرف قصة معاذ حينما صلى بالناس وأطال، فخرج رجل من الصلاة، فلما أُخبر معاذ بذلك قال: إنه منافق، فذهب الرجل يشكو معاذا إلى رسول الله ﷺ، وكما نعلم أن رسول الله ﷺ قال له (أتريد أن تكون فتاناً يا معاذ، إذا أممت الناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى)[12].. فإذا صلى الإنسان بالناس يرفق بهم، وإذا صلى لنفسه يطيل ما شاء.

الحكمة الثالثة: هي تهيئة النفس بتغيير تصورها عن الشيء:

فلا شك أن الإنسان يتحمس للأمر طالما هو مقتنع به، فإذا تغير هذا الاقتناع يمكن أن يتغير سلوكه.. فإذا أردنا أن نغير سلوك الناس لا بد أن نغير تصورهم عن الأمر الذي هم عليه إلى ما نريدهم إليه، فإن موقف الإنسان من شيء ما، أو أمر ما هو نتيجة لتصوره عن ذلك الشيء أو ذلك الأمر. فلا شك أن الإنسان وهو صغير -مثلا- يرى النار لعبة جميلة، وشكلها مغري، فيحاول أن يمسكها، لكنه حينما يكبر قليلا ويعرف أنها محرقة لا يعمل هذا العمل.. لماذا؟ لأن تصوره عن النار قد تغير، فبعد أن كان يظنها لعبة اكتشف أنها شيء ضار وحارق. فاختلاف اقتناع الناس شيء مهم.

فالجاهلية كانت ترى الخمر شرفا، وترى الظلم عزا. فلا بد أن يتغير تصورها عن هذا الظلم وعن هذه الخمر لكي تستطيع أن تستغنى وتقلع عنهما.

وهذه بعض أبيات من الشعر عن الجاهلية تصور لنا كيف كانوا غارقين في تصورات باطلة. فهذا حسان بن ثابت -رضي الله عنه- يرثي فارسا من فرسان العرب في الجاهلية، وقد مر على قبره، وكان الناس يعقرون على ذلك القبر -أي يقدمون القرابين على هذا القبر- فيقول:

نفرت قلوصي من حجارة حرة ... بنيت على طلق اليدين وهوب

لا تنفري يا ناق منه فإنه ... شرّيب خمر مسعر لحروب

لولا السفار وطول قفر مهمة ... لتركتها تحبو على عرقوب

---

١٠ أخرجه البخاري في نفس الموضع السابق.

١١ أخرجه البخاري في نفس الموضع السابق.

١٢ أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي ج٤ ص ١٨٢، ١٨٣.

والقلوص هي الناقة.. فهو يقول: لولا حاجته لناقته لطول السفر لقدمها قربانا لصاحب هذا القبر الذي يمدحه بأنه شريب خمر ومسعّر لحروب.

فهذا كان تصور الصحابة قبل أن يسلموا؛ أن الخمر شيء عظيم، وكذلك مسعر الحروب هو أيضا أمر عندهم عظيم.

وهذه أبيات أخرى لشاعر يهجو قبيلة من القبائل فيقول:

إذا الله عادى أهل لؤم وذلة   فعادى بني العجلان رهط بن مقبل

قبيلة لا يخفرون بذمة   ولا يظلمون الناس حبة خردل

فالوفاء كان في تصورهم سبة، والعدل منقصة.

فلا شك إذا كانت نظرة الذين جاء إليهم الإسلام بهذه الصورة فلا شك أن الأمر كان يحتاج إلى طريقة ذكية جدا ورفيقة جدا لكي يقبلوا أن ينتقلوا -ابتداءً- من عبادتهم للأصنام والآلهة المدعاة إلى عبادة الله وحده، ثم لكي يتركوا هذه العادات الكثيرة التي كانوا يعتبرونها عزا وسؤددا وشجاعة ومروءة، فكان لا بد من تغيير نظرة الناس إلى هذه الأشياء بتدرج وبإقناع وبرفق.. حتى إذا تغيرت نظرتهم إلى الخمر تركوها، وإذا تغيرت نظرتهم إلى الظلم غيروه.. وهكذا.

وهذا ما فعله الإسلام ببطء وتدرج؛ بناء للعقيدة وترسيخ لها، وترسيخ لأخلاق العقيدة أيضا، ثم بيان ما في هذه الأعمال من مساوئ وأضرار وعدم مروءة وظلم للعباد، ومناقضة لعبادة الله الذي آمنوا به. فحينما وصلوا إلى هذه نزل الحكم بعد ذلك بالأمر أو بالنهي وهم متهيئون للوفاء به.

الحكمة الرابعة: تجنيب الناس فتنة الانشغال بالفروع وإغفال الأصول:

وهذه القضية معروفة عندنا، ومنذ زمن ونحن نتكلم فيها، ونقول: إننا إذا شغلنا الناس بالفروع قبل أن يهضموا الأصول سينشغلون بهذه الفروع عن الأصل، وتتغبش القضية الأساسية، وفي النهاية لن يلتزموا لا بالأصول ولا بالفروع. ولذلك كنا نقول دائما أننا لا ندعو الناس ابتداءً إلى أن يصلوا أو يصوموا أو إلى فرعيات السلوكيات قبل أن ندعوهم إلى أن يعرفوا الله ويعبدوه.. ولا نمنعهم -مثلا- عن التليفزيون ولا عن الاهتمام بكرة القدم ولا بالسينما ولا بالمسرح ولا باللبس وما شابه ذلك قبل أن نُعمِّق فيهم حقيقة العبودية لله، وحقيقة فهمهم للألوهية. فنحن إذا أصررنا على الفرعيات سندخل في جدل عقيم، ثم لا يقتنعون في النهاية.

ولا شك أن الإسلام حينما جاء كان حريصا حرصا شديدا على هذا الأمر.. والدكتور علي عبد الجبار يضرب المثل هنا بعدة قضايا فهو يقول عن موضوع التبني مثلا: "ترى لو شرع في مكة حِلُّ زواج الرجل بامرأة متبناه، أو أُلغي ما تعارف الناس عليه من حرمة الزوجة بظهار زوجها منها.. ترى لو كان كذلك كم سيبقى للناس من الاهتمام بالحقيقة الكبيرة؛ حقيقة "لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، إنهم لن يكون لهم شغل إلا الحديث عن ذلك الأمر الذي جاء به محمد ﷺ، وستغيب الحقيقة الكبرى الأصلية في غمرة الاهتمام بذلك المقتضى الفرعي الذي لا سبيل إلى فهمه ولا إلى قبوله إلا بإدراك الأصل واعتقاده والإذعان والتسليم لمقتضاه. وهكذا بقية التكاليف..". يقصد أن هذه التكاليف ما لم تأتِ في موعدها المناسب لا يمكن أن تأتي بثمارها.

الحكمة الخامسة: تهيئة المُناخ الملائم لتطبيق التشريعات:

يقول: "إن أي حكم من الأحكام لا بد له من مناخ ملائم يعمل فيه، وكما لا تنبت الأزهار والرياحين إلا في تربة معينة ودرجة حرارة معينة وقدر من الضوء معين، فكذلك أحكام الشرع. إنها لكي تحقق غايتها من درء المفاسد وجلب المنافع، لا بد لها:

أولا: من مكلفين ذوي مواصفات معينة.

وثانيا: لا بد لها من وسط اجتماعي معين.

وثالثا: لا بد لها من سلطة تشرف على تطبيقها وتردع الخارجين عليها، وتمنع أن يزاحمها أحكام أو أعراف أخرى تصطدم بمقاصدها وتفسد آثارها".. وهذا كلام جيد..

إنه لا بد أن يكون الذين تتنزل عليهم هذه الأحكام مكلَّفين لهم مواصفات معينة لكي يرضوا حكم الله، ولكي يرضوا أن ينتهوا عما حرمه الله مما كانوا يحلونه ويعتبرونه شيئا رائعا، أو يأمرهم بأمر كانوا يرونه شيئا إدّاً.. فلا بد أن يكونوا نوعا خاصا.. والنوع الخاص المقصود هنا أن يكونوا قد عبدوا لله أولا، ورضوا بالله ربا وأحبوه وهابوه ووقروه، ثم بعد ذلك حينما ينزل إليهم الأمر والنهي يكونون مستعدين لهذا الأمر.

ولا بد من وسط اجتماعي معين؛ بمعنى أن يكون هناك الجماعة التي تعين على الالتزام، ويكون التكاتف على طاعة الله عز وجل بالتزام أمره والانتهاء عن نهيه.. فوجود جماعة يدفع أفرادها إلى أن يشجع بعضهم بعضا على الخير ويوصي بعضهم بعضا بالانتهاء عن الشر. فلا شك أن وجود الصحابة في المدينة بعضهم مع بعض في جو آمن وفي اجتماع متواصل كان داعيا لهم إلى أن يتكاتفوا على التواصي بتنفيذ الأمر الذي يؤمرون به أو الانتهاء عن الأمر الذي نهوا عنه وإن وجدوا في ذلك صعوبة، فيسهل عليهم التنفيذ، وذلك بعد توفر الأمر الأول؛ وهو أنهم جميعا قد ربُّوا على العقيدة وتعمقت في نفوسهم.

والشرط الثالث: إنه لا بد من سلطة كسلطة النبي ﷺ في المدينة، ففي مكة لم يكن له سلطة -لا على نفسه، ولا على غيره- لكنه في المدينة أصبح هو صاحب السلطة. فلا بد أن تكون هناك سلطة تقيم الشرائع وتشرف على تطبيقها، وتمنع ما يناقضها، وتعاقب من يخالفها، وتثيب من يستجيب لها.

فكل هذه الشروط الثلاثة لا بد من توفرها لكي تتحقق التكاليف.. مكلفين من نوع خاص، ووسط اجتماعي يتعاون على البر والتقوى، ثم سلطة مسلمة قوية قادرة على أن تهيمن على الأمور وتسيرها كما ينبغي أن تكون.

ويقول: "ولقد كان من واقعية الإسلام عدم تكليف الناس تكاليف لم تتوفر عوامل نجاحها، ففي مكة مثلا -والمسلمون لم يكن لهم سلطان على المجتمع الذي يعيشون فيه- لم يكلفهم الله إلا بتكاليف فردية قليلة تتناسب مع قدرتهم. ولما صار للمسلمين مجتمع في المدينة على رأسه دولة، أخذت الأحكام تترى، إذ صار المناخ ملائما للالتزام بتلك الأحكام، وإحداثها أثرها الصحيح".

فلا شك أن إدراك الحِكَم من وراء التدرج يجعلنا -ونحن نقيم الإسلام مرة أخرى وندعو إلى الله مرة أخرى، في وقت يتماثل مع نفس المراحل التي مرت بها الجماعة الأولى- متفهمين للحكمة من التدرج، ويسهّل ذلك علينا أن نستخرج الأحكام ونحن في حالة من الطمأنينة، ثم يسهل علينا -أيضا- تربية الجماعة دون أن نكلفها شططا، ودون أن نحملها ما لا تطيق، ويكون تعاملنا مع المجتمع -أيضا-

تعاملا واقعيا، يوصل له الإسلام، ويوصل له القضية الأساسية قبل أن نشغله بالفروع، وقبل أن نعطيه فرصة للانقضاض علينا من خلال السلوك الخاطئ أو الفهم الخاطئ.

فإذن الحكمة في التدرج التشريعي:

أولا: أخذ الناس بالهوادة والرفق.

ثانيا: أن التدرج أدعى إلى قبول الناس لهذه الأحكام.

ثالثا: تهيئة النفوس بتغيير تصوراتها عن الأشياء.

رابعا: عدم الانشغال بالفروع عن الأصول.

وخامسا: تهيئة المناخ الملائم للتطبيق.

التدرج في التطبيق

ويبقى بعد ذلك التساؤل: هل يكون التدرج التطبيقي في كل شيء؟ أم أن هناك مجالات لا يجوز فيها التدرج، ومجالات تقبل هذا التدرج؟

لا شك أن من البديهي أن نقرر أن هناك مجالات لا تقبل التدرج بطبيعتها من خلال طبيعة مجالها؛ فمثلا:

أصول العقيدة لا يقبل فيها التدرج، لأن العقيدة هي التي تحدد أو تُثْبِت للناس حقيقة الإسلام، فلم يكن هناك تدرج في قضية التوحيد. فلا بد من التوحيد، ولا بد من الانتهاء عن الشرك.. ولا بد لأي إنسان يريد أن يكون مسلما أن ينتهي عن كل ما يؤدي إلى الشرك بالله، وأن يحقق توحيده كاملا. فهذه هي الخطوة الأولى التي لا خطوة قبلها، ولا بد أن تتوفر في أي مسلم.. فهذا مجال لا يقبل التدرج.

وأي عمل يخرق العقيدة لا يقبل فيه التدرج، فلا بد أن يكون المؤمن عارفا بعقيدته، وعارفا بما يخرق هذا التوحيد.

المجال الثاني الذي لا يقبل التدرج هو **الأخلاق**؛ فالمسلم مطالب بالأخلاق، ومطالب بأن يكون ملتزما بأصول الأخلاق. ولذلك جاء الحديث عن أصول الأخلاق كثيرا في السور المكية.. كما في سورة "الفرقان"، وفي سورة "المؤمنون"، وفي سورة "المعارج"، وفي غيرها من السور المكية.. تحدد الأخلاق بصورة واضحة لا بد للمسلم أن ينتهي إليها ويأتمر بها.

وهناك مجالان آخران؛ مجال يتعلق بالفرد، ومجال يتعلق بالمجموع..

فلا شك أن الإنسان مطالب بالتكاليف الفردية باستمرار، ما لم يكن هذا التكليف متوقفا على الآخرين. وهذا هو ضابط التكاليف الفردية الملزم بها المؤمن باستمرار؛ سواء في الجماعة المسلمة الأولى، أو مرحلتنا التي نحن فيها اليوم.

فبالنسبة لنا الشريعة قد اكتملت، فنحن مطالبون أصلا بالشريعة كلها، ثم يطرأ على هذا الطلب عوارض وموانع تجعلنا غير قادرين على أن نقيم هذه الشريعة؛ إما للعجز عن تطبيقها، أو فوات مصلحة أو خلل بترتيب الأولويات. فالذي يمنعنا الآن من تطبيق كل الشريعة التي

نحن مطالبون بها؛ إما العجز لأننا مستضعفون، أو لأن هذا التدرج تقتضيه المصلحة ويقتضيه ترتيب الأولويات، فنضطر إلى التأخير والتقديم حسب تحقق الأولويات وارتباطها بالمصلحة.

فضابط التكاليف الفردية -إذن- هي أن يستطيع الفرد أن يقوم بهذا التكليف دون أن يترتب عليه مضرة، ودون أن يكون متوقفا على الآخرين، فيصبح بذلك مكلفا به باستمرار.

أما التكاليف الاجتماعية -أو الجماعية- فهي تلك التكاليف التي تكون مرتبطة بالآخرين، فلا يستطيع الفرد أن يقوم بها وحده، فتصبح الجماعة مكلفة بها. وضابطها ألا يترتب على القيام بها فوات مصلحة أو خلل بترتيب الأولويات.

فالمجالات التي تدخل فيها المرحلية تنقسم إلى هذين القسمين الكبيرين؛ قسم التكاليف الفردية، وقسم التكاليف الجماعية.

والتكليف الفردي ضابطه ألا يكون مرتبطا أو متوقفا على الآخرين، وألا يسبب مضرة وخللا في الأولويات.

والتكليف الجماعي وهو التكليف الذي يكون مرتبطا بالآخرين أو متوقفا على الآخرين، وضابطه أيضا ألا يتحقق من إقامته ضرر أو خلل بالأولويات.

أما من ناحية التفصيل فيما يقبل التدرج فهي العادات والمألوفات الاجتماعية، وهذه المسائل تتغير بتغير الزمن، وتتغير بتغير الأعراف، وتتغير بتغير الأماكن أيضا. فلا شك أن ما كان سابقا يعتبر تكليفا جماعيا قد لا يصبح في عصرنا تكليفا جماعيا.

فالخمر -مثلا- كانت في الزمن الماضي عنصرا من عناصر الرجولة والفحولة والكرم، بحيث كان الإنسان لا يستطيع ألا يقدم الخمر للناس أو لا يشربها، فتكون مسبة بالنسبة له.. لكن الآن ليست الخمر كذلك. وبالتالي ما كان يعتبر تكليفا جماعيا في الماضي يمكن ألا يكون كذلك في الحاضر.

ومسألة التبني انتهت، فلم يصبح هناك إلزام بها، أو لم يصبح هذا الحكم اجتماعيا، لأنه أمر فردي يمكن ألا يلتزم الناس به وإن كان قائما.. فالناس الآن يتبنون، لكنه ليس عرفا وليس اعتقادا وليس نظاما كما كان في الجاهلية الأولى.. فكان إذا تبنى الرجل أي إنسان يأخذ هذا الإنسان حكم الابن تماما؛ في الميراث وفي الحرمة وفي حرمة زوجته عليه وهكذا.. والآن ليس الأمر كذلك. لكن يمكن أن توجد عادات جديدة يعتبرها الناس شيئا طبيعيا أو تكليفا اجتماعيا.. لو لم يعمله الإنسان لكان ذلك منتقدا أو يصيبه ضرر.. فتقدر الأمور بمقاديرها.

فعلى الإنسان المسلم أن يتعرف على ما هو تكليف فردي ليس متوقفا على الآخرين، وما هو تكليف اجتماعي يحتاج تدرجا في التعامل معه، فالسلام على المرأة مثلا، والاختلاط في مجتمعات يعتبر هذا ضروريا كالمجتمعات الغربية، فالانسلاخ عنه أمر غير مفهوم. فالسلام على المرأة وتقديمها على الرجل هذه مسائل عرفية، الذي لا يعملها يكون إنسانا فقد مروءته عندهم، وهذا كذلك في بعض مجتمعاتنا الشرقية مثل المصرية واللبنانية وغيرها والتي تأثرت بهذا التقليد حتى أصبح الآن الأمر عندهم طبيعيا. فالإنسان في مثل هذه الحالة لا يستطيع أن ينسلخ مرة واحدة، وإنما ينسلخ بالتدريج حتى ينتهي منه. ويكون في ذهنه أنه لا بد أن يصل إلى الحكم النهائي فيه.

كذلك الربا كانوا يعتبرونه ضرورة اقتصادية ومعلما رئيسيا من معالم الاقتصاد الجاهلي عند العرب وعند غير العرب، لذلك كان آخر آيات الأحكام التي نزلت آيات تحريم الربا، لأنه كان شديد التداخل والتعمق في نفوس العرب، وفي نفوس العالم كله.. فنجد أن هذا قد احتاج إلى تدرج كما رأينا في الخمر وكما رأينا في التبني.. فكل هذه الأمور حدث فيها تدرج، وانتهت إلى الأمر الشرعي كما أراده الله عز وجل..

ورأينا ذلك أيضا في العادات وفي العلاقات مع المجتمعات الأخرى، والذي هو صورة الجهاد، حدث فيه هذا التدرج. وموضوع الأسرى أيضا حدث فيه تدرج؛ من الصفح عنهم أو قتلهم أولا، ونعلم كيف عوتب الرسول ﷺ في بدر أنه لم يقتلهم ويثخن فيهم، ثم جاء بعد ذلك التخيير بين المن أو القتل حسب ما يرى الإمام من مصلحة.

والأوضاع الاقتصادية -كما قلنا بالنسبة للربا وغيره- لأنها أمر يحتاج إلى تهيئة المجتمع كله بعلاقاته وبموارده وبنشاطه لكي يتقبل الأوضاع الاقتصادية الجديدة، فلا تحدث بلبلة أو أزمات عنيفة في المجتمع الذي تتم فيه هذه التغييرات، فلا بد لهذه التغييرات أن تحدث بالتدريج.

مرتكزات القول في التدرج في التطبيق

ونأتي أخيرا إلى مرتكزات القول في التدرج في التطبيق.. ما هي المرتكزات الأساسية التي يقوم عليها أمر التدرج من الناحية الشرعية.. ونقصد بالمرتكزات التي ارتكز إليها علماؤنا والفقهاء والأصوليون للقول بالتدرج؟ وهذا الفصل سنحتاج فيه إلى الاستشهاد ببعض ما قاله الأئمة السابقون.

ابتداءً مرتكزات القول بالتدرج وتطبيقه ثلاثة:

الأول: النسء.

الثاني: مقاصد الشريعة

الثالث: القواعد الشرعية.

المرتكز الأول: النسء:

يقصد به رفع الحكم الشرعي بخطاب شرعي لزوال علته، بمعنى أن الحكم يتغير بزوال العلة. وهذا يفرقه عن النسخ. لأن النسخ تعريفه: رفع حكم شرعي بدليل شرعي متراخ ليس مرتبطا بالعلة، وإنما مرتبط بإرادة المشرع سبحانه بأن يغير الحكم لحكمة يريدها.

هذا الفرق في التعريف جعل هناك فرقا في النظرة إليه. فالنسء بما أنه تَغيَّر أو رُفِع الحكم الشرعي بسبب زوال علته، فإذا رجعت العلة رجع الحكم، وهذا هو الذي استند إليه الفقهاء في قولهم بأنه ليس كل حكم رفع يكون نسخا. فمن ذلك ما يكون نسخا فلا يجوز الرجوع إليه، ومنه ما يكون نسيئا فيمكن الرجوع إليه (أي إلى حكم المرحلة السابقة التي شرع فيها هذا الحكم) إذا رجعت العلة، أو رجعت الظروف التي تسببت فيه.

وقد وضح الإمام الزركشي النسء بالمثال الآتي حيث قال: "ومن هذا قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] كان ذلك في ابتداء الأمر، فلما قوي الحال وجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والمقاتلة عليه، ثم لو فرض وقوع الضعف كما أخبر النبي ﷺ في قوله (بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ)[١٣] عاد الحكم، وقال ﷺ (فإذا رأيت هوى متبعا وشحا مطاعا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بخاصة نفسك)[١٤]، وهو -سبحانه وتعالى- حكيم أنزل على نبيه ﷺ حين ضعفه ما يليق بتلك الحال رأفة بمن تبعه ورحمة، إذ لو وجب لأورث حرجاً ومشقة؛ فلما أعز الله الإسلام وأظهره ونصره، أنزل عليه من الخطاب ما يكافئ تلك الحالة من مطالبة الكفار بالإسلام أو بأداء الجزية -إن كانوا أهل كتاب- أو الإسلام أو القتل إن لم يكونوا أهل كتاب. ويعود هذان الحكمان -أعني المسالمة عند الضعف والمسايفة[١٥] عند القوة- بعود سببيهما، وليس حكم المسايفة ناسخاً لحكم المسالمة، بل كل منها يجب امتثاله في وقته"[١٦].

ومثال آخر أورده الإمام الشافعي رحمه الله قال: "أخبرنا مالك عن عبد الله بن أبي بكر عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ وَاقِدٍ بن عبد الله بن عمر، أَنَّهُ قَالَ: "نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم عَنْ أَكْلِ لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلاَثٍ، فقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَتْ: صَدَقَ، سَمِعْتُ عَائِشَةَ، تَقُولُ: دَفَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ حَضْرَةَ الأَضْحَى فِي زَمَانِ رَسُولِ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: ادَّخِرُوا لِثَلاَثٍ وَتَصَدَّقُوا بِمَا بَقِيَ، قَالَتْ عمرة: قالت عائشة: فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: لَقَدْ كَانَوا يَنْتَفِعُونَ من ضَحَايَاهُمْ وَيَحمُلُونَ مِنْهَا الْوَدَكَ، وَيَتَّخِذُونَ مِنْهَا الأَسْقِيَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: وَمَا ذَلِكَ، أَوْ كَمَا قَالَ: قَالُوا يا رسول الله: نَهَيْتَ عَنْ إمساك لُحُومِ الضَّحَايَا بَعْدَ ثَلاَثٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلى الله عَلَيه وَسَلم: إِنَّمَا نَهَيْتُكُمْ مِنْ أَجْلِ الدَّافَّةِ الَّتِي دَفَّتْ عَلَيْكُمْ فَكُلُوا، وَتَصَدَّقُوا، وَادَّخِرُوا"[١٧]. قال الشافعي رحمه الله: فالرخصة بعدها في الإمساك والأكل والصدقة من لحوم الضحايا إنما هي لواحد من معنيين لاختلاف الحالين، فإذا دفت الدافة ثبت النهي عن إمساك لحوم الضحايا بعد ثلاث، وإذا لم تدف فالرخصة ثابتة بالأكل والتزود والادخار والصدقة".

ومثل ثالث قال شيخ الإسلام ابن تيمية معللا قتل النبي ﷺ المنافقين الذين ظهر منهم من الكفر ما يوجب قتلهم "فإن قيل: فَلِمَ لَمْ يقتلهم النبي ﷺ مع علمه بنفاق بعضهم، وقبل علانيتهم؟ قلنا: إنما ذلك لوجهين:

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة..

---

١٣ رواه مسلم في كتاب الإيمان.

١٤ أخرجه أبو داود في سننه. كتاب الملاحم. باب الأمر والنهي. وبقية الحديث: "ودع عنك العوام فإن من ورائكم أيام، الصبر فيه مثل القبض على الجمر، للعامل منهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله". وأخرجه الترمذي في سننه. كتاب تفسير القرآن. باب ومن سورة المائدة. وقال عنه: هذا حديث حسن غريب.

١٥ المسايفة: استعمال السيف، أي القوة في تغيير المنكر.

١٦ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي. البرهان في علوم القرآن. (بيروت: دار الفكر، ط الثالثة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م) ج٢. ص٤٢-٤٣.

١٧ موطأ الإمام مالك ج٢ ص١٨٩ حديث ٢١٣٦.

الوجه الثاني: أنه عليه الصلاة والسلام كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بين ذلك حينما قال: (لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه)[١٨]... والذي يبين حقيقة الجواب الثاني أن النبي ﷺ لما كان بمكة مستضعفاً هو وأصحابه عاجزين عن الجهاد أمرهم الله بكف أيديهم والصبر على أذى المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة وصار لهم دار عز ومنعة أمرهم بالجهاد وبالكف عمن سالمهم وكف يده عنهم، لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كل منافق لنفر عن الإسلام أكثر العرب إذ رأوا أن بعض من يدخل فيه يقتل، وفي مثل هذه الحالة نزل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾[الأحزاب: ٤٨]، وهذه السورة نزلت بالمدينة بعد الخندق، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له، فلا يكافئهم عليه لما يتولد في مكافأتهم من الفتنة، ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكة، ودخلت العرب في دين الله قاطبة، ثم أخذ النبي عليه الصلاة والسلام في غزو الروم، وأنزل الله تبارك وتعالى سورة (براءة)، وكمل شرائع الدين من الجهاد والحج والأمر بالمعروف، فكان كمال الدين حين نزل قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة: ٣] قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر، ولما نزلت (براءة) أمر الله بنبذ العهود التي كانت للمشركين وقال فيها: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ٧٣]، وهذه ناسخة لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٨]، وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمداً يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم... فحيثما كان للمنافق ظهور وتخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية ﴿ وَدَعْ أَذَاهُمْ ﴾ كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف والصفح، وحيثما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله تعالى: ﴿ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ﴾[١٩]."

ويعلق الدكتور علي عبد الجبار قائلا: "وهكذا ينتقل المسلم من حكم إلى حكم لا عن هوى يكسبه ثوب المصلحة، ولكن لعلة منضبطة هي التي تنقله من الحكم الأخير إلى الحكم الأول، فإذا زالت تلك العلة عاد إلى الحكم الأخير".

وهكذا يتضح أن النسء هو العلة أو الركيزة الأولى التي ارتكز إليها العلماء في أمر المرحلية أو التدرج في الأحكام، فإذا زالت العلة عاد الحكم، وإذا اختفت العلة اختفى الحكم.

المرتكز الثاني: مراعاة مقصد الشارع (أو مقاصد الشريعة):

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "الشريعة مبناها وأساسها على الحِكَم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل"[٢٠].

ثم يقدم الإمام ابن القيم صورة من فقه شيخه ابن تيمية -رحمه الله- ترينا مدى فقه الشيخ لمقاصد الشارع فيقول: "وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم من كان

١٨ صحيح البخاري. كتاب التفسير في تفسير سورة المنافقين. باب قوله تعال: "سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين". انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني. (بيروت: دار المعرفة، بدون طبعة ولا تاريخ) ج٨. ص٦٤٨.

١٩ الصارم المسلول على شاتم الرسول. تحقيق: محي الدين عبد الحميد. (طنطا: مكتبة تاج، ط الأولى ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م) ص٣٥٥-٣٥٩.

٢٠ إعلام الموقعين عن رب العالمين. تحقيق: محي الدين عبد الحميد. (بيروت: دار الفكر، ط الثانية ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م) ج٣. ص١٤.

معي، فأنكرت عليه، وقلت له: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال فدعهم"[٢١].

ويعلق الدكتور علي عبد الجبار قائلا: "إن إنكار المنكر ليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق ما يحبه الله ورسوله من المعروف، ولذا فإنه إذا كان إنكار المنكر يؤدي إلى ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يجوز إنكاره، ولقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات من طواف النساء بالبيت عرايا وأشكالاً من الزنا فما أنكر شيئاً منها[٢٢]، إذ كان عليه الصلاة والسلام يعلم أن ثمة منكراً أكبر ينبغي أن يقلعه من النفوس هو الشرك بالله، وأن ثمة معروفاً أكبر ينبغي أن يغرسه في القلوب هو التوحيد، وأن كل محاولة لتغيير المنكرات المتولدة من الشرك دون اقتلاعه هي جهد ضائع، وعبث لا يليق.

إن إدراك مقاصد الشارع الحكيم قد تجعلنا نؤجل العمل بحكم من الأحكام لعدم تحقق مقصد الشارع إن أمضيناه الآن".

فمقاصد الشريعة -إذن- لا بد أن تكون لها حكمها أو أثرها في اتخاذ الحكم المناسب، والرسول ﷺ يقول في نصيحة للمؤمن (لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي)[٢٣]. وهذا الكلام صحيح تماما في المجتمع المسلم، فحينما يقاطع الفاسق ويقاطع الكافر ويجد نفسه منبوذا يدفعه هذا إلى الخروج من هذا النبذ إلى الإسلام، فيكون هذا خير له.. لكن إذا أخذنا هذا الحديث وعملنا به الآن فسوف نقاطع كل الناس ويقاطعونا، وبالتالي من سندعو؟ سنقاطع آباءنا وأولادنا، وقد يكون -أيضا- بعض زوجاتنا.. فتنقطع الجسور بيننا وبين الناس، فلا تكون هناك وسيلة إلى الدعوة. فإذا أخذنا بظاهر الحديث لأبطلنا معروفا أكبر وجئنا بمنكر أكبر، وإذا سكتنا عن هذا الآن صاحبنا غير المؤمنين لندعوهم ولنعمل جسورا بيننا وبينهم، ودعوناهم إلى بيوتنا لكي يشاركونا في بعض الأشياء ابتغاء هدايتهم إلى الحق، ويكون هذا هو الحكم المطلوب الآن، وغير ذلك يكون عصيانا وخروجا عن مقاصد الشارع.

المرتكز الأخير: هو القواعد الشرعية:

والقاعدة الشرعية -في اصطلاح الفقهاء- هي حكم أغلبي ينطبق على معظم جزئياته، وعرفها بعضهم بأنها حكم أغلبي يعرف منه حكم الجزئيات الفقهية مباشرة.

فالقاعدة الفقهية حينما يفهمها الإنسان جيدا يستطيع -من خلالها- أن يحكم على أشياء كثيرة، حتى وإن لم يعلم الحكم الفقهي الفرعي في هذه الجزئية، مستصحبا في ذلك القاعدة الكلية.

وتكتسب القواعد الفقهية أهميتها من أنها:

---

٢١ المصدر السابق. نفس الجزء. ص١٦.

٢٢ المصدر السابق. نفس الجزء. ص١٥-١٦. وانظر: أنواع النكاح في الجاهلية في حديث عائشة رضي الله عنها في صحيح البخاري. كتاب النكاح. باب من قال: لا نكاح إلا بولي. انظر: صحيح البخاري مع شرحه فتح الباري. ج٩. ص١٨٢-١٨٣.

٢٣ رواه أبو داود في سننه. كتاب الأدب. باب من يؤمر أن يجالس. ج٤. ص٣٥٨. ورواه الترمذي. كتاب الزهد. باب ما جاء في صحبة المؤمن. وقال عنه: هذا حديث حسن. انظر: سنن الترمذي مع شرحها عارضة الأحوذي للإمام ابن العربي. ج٩. ص٢٤٢. وقال عنه عبد القادر الأرناؤوط: إسناده حسن. انظر: مختصر شعب الإيمان للبيهقي بتحقيقه.

أولا: تكوّن المَلَكة الفقهية لدى الباحث فتيسر عليه تلمس الحكم الشرعي في كثير من المسائل الفقهية.

ثانيا: أنها تجمع الفروع والجزئيات المتناثرة التي لا يسهل حفظها واسترجاعها.

ثالثا: تحقق إدراك مقاصد الشريعة، فمعرفة القاعدة العامة التي تندرج تحتها مسائل فقهية عديدة يعطي تصورا واضحا عن مقصد الشريعة. فقاعدة "الضرر يزال" -مثلا- يفهم منها أن رفع الضرر مقصد من مقاصد الشريعة.

وكذلك القواعد الأخرى كلها، كقاعدة "إذا تعارض واجبان قدم الأوجب منهما"، فإذا كنا بصدد أداء واجب معين، ووجدنا عملا آخر هو واجب أيضا لكن إذا فعلناه عجزنا عن فعل الواجب الأكبر منه أخرنا الواجب الأقل لنقيم الواجب الأول، فإذا تعارض واجبان يعمل بالأوجب.

وكذلك قاعدة "المشقة تجلب التيسير".. فالقواعد الشرعية كثيرة.

فإذا عرفنا ذلك عرفنا أن القواعد الشرعية مرتكز للقول بالتدرج أو المرحلية.

فحينما نطبق هذه القواعد على واقعنا نرى أننا مضطرون في كثير من الأحيان -تبعا للقواعد الشرعية ومقاصد الشارع- أن نؤجل بعض الفروض لأنها تتناقض مع واجبات أكبر منها، ونرتكب بعض المنكرات لأن الانتهاء عنها يوجب منكرات أكبر منها. ونضرب لذلك مثلا في ترك اللحية التي يرى أكثر الفقهاء أنها واجب، ولكن لا شك أن تربية اللحية الآن يمثل عقبة في حركة الإنسان المسلم بين مجتمع يعادي كل مظاهر الإسلام وكل مظاهر الحق.. والنقاب أيضا يمكن اعتباره كذلك، رغم أنه مطلب شرعي حكمه الندب على الأقل، ولكنه يصنف الداعية أو الأخت تصنيفا خاصا.. لبس الملابس الإفرنجية كالبدل والبنطلون لا شك أنه ليس هو الأفضل، لكن نحن مضطرون إليه لأننا نعيش في مجتمعاتنا في إطار معين، والانتهاء عن ذلك يميزنا بصورة معينة، ويؤدي إلى أخطار أكبر.. أشياء كثيرة جدا كهذه.. نستطيع من خلال القاعدة الفقهية أن نستنتج لها أحكاما جزئية كلما قابلتنا مواقف نستطيع من خلال إدراكنا للقواعد الفقهية أن نعرف حكمها المرحلي المناسب.

فهذه المرتكزات الثلاثة وهو؛ النسء، ومقاصد الشريعة، والقواعد الشرعية هي مرتكزاتنا للقول بالمرحلية، أو مرتكزات الفقهاء والسلف الصالح الذين فقهوا القضية فقها جيدا، وقدموا لنا حلولا وتكييفا شرعيا لقضية المرحلية، وإن لم يسموها بالمرحلية كما نسميها الآن.

ونحن الآن -أيضا- نستطيع أن نطمئن أننا مطالبون بأحكام مرحلية نتيجة أننا نمر بتطورات وبأطوار شبيهة بتلك المراحل التي مر بها الجيل الأول وارتكز عليها أيضا في حركته نحو الهدف النهائي، والله أعلم.

وبطبيعة الحال قد لا يفهم كثير من العلماء الآن أهمية قضية المرحلية، أو قد لا يلتفت إليها كثير من الدعاة من الحركات الإسلامية الآن. ولا يجوز أن يكون هذا الجهل أو عدم الالتفات عامل تشكيك لنا فهي -كما قلت- لا تحتاج إلى كثير أدلة إلا لتثبيتها والطمأنينة إلى شرعيتها، ولو لم يعلم المسلم إلا قول الله عز وجل ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] لكفاه هذا القول دليلاً على مشروعية المرحلية فهذه الآية وحدها تجعلك تستنتج منها دائما أن ما لا تستطيع أن تفعله فأنت لست مؤاخذا به ابتداء.. فإذا كنت في مجتمع جاهلي فأنت غير مؤاخذ على عدم استطاعتك إقامة الحدود. وأيضا إذا فهمت أنك مطالب بإقامة واجب ضخم وكبير فإنك ستجد بعقلك أن أي واجب آخر سيؤخر هذا الواجب أو يعطله لا بد أن يُؤخر وهذا نفعله حتى في أحوالنا الحياتية.. فإذا وجدت -مثلا- معتدي يريد أن

يضرب ابنك أو يقتله وتستطيع أن تفديه ببعض المال فستضحي بالمال في سبيل إنقاذ ابنك من الخطر، مع أن الأصل أن تقف أمام هذا المعتدي وتقاتله لكي تكون رجلا وتحافظ على كرامتك، لكن عندما تجد أن هذا الاختيار سيعرضك إلى أخطار أنت لا تستطيعها فتختار أمرا آخرا يحفظ لك الأمر بأقل الأكبر منه، فتدفع المال.. وهكذا فعل الصحابي الذي رأى عمر بن الخطاب متوجها إلى قتل رسول الله ﷺ فحوّله إلى أخته فاطمة بنت الخطاب وزوج أخته سعيد بن زيد، وقال له: لا تغرنّك نفسك يا عمر اذهب إلى ختنك وإلى أختك فقد أسلما، فأراد أن ينقذ حياة رسول الله ﷺ لأن قتله من المنكر الأكبر ومن الخطر الأكبر وحتى لو أدى قوله ذلك إلى قتل سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب، فهما فردان لا يؤثر قتلهما في مسيرة الإسلام، فضحى بهما لينقذ الرسول ﷺ؛ فارتضى فعل المنكر اتقاء لما هو أشد نكراً.. فهكذا كان الصحابة يفهمون الأمر بفطرتهم، فهذا الصحابي لم يعلمه أحد، لكنه بفطرته فَهِم الأمر هكذا. فحتى لو ترك الإنسان لعقله سيجد أنه يتصرف في تعامله مع الأمور كذلك إذا كان جادا وكان واقعيا وكان حصيفا.

فنحن نأتي بالأدلة الشرعية لكي نطمئن أن ما نفعله إنما هو استجابة لتوجيه الله وشرعه، فنفعله ونحن مطمئنون أننا نعبد الله ونحقق طاعتنا له تماما، مهما قال القائلون ومهما عارض المعارضون.

الجماعة المسلمة

نتحدث الآن عن موضوع مرتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الجهاد في سبيل الله، فما زلنا نتحدث عن الجهاد والقضايا المرتبطة بهذا الموضوع الكبير.

وهذا الموضوع هو الجماعة المسلمة وأهميتها في حياة المسلمين، ومكانها في شرع الله وفي منهج الله.

ونكرر القول إن كل الأصول الإسلامية التي تقوم على الأصل الكبير، وهو توحيد الله عز وجل نجد أنها أصول ترتقي إلى درجة البداهة من حيث انبثاقها الطبيعي من هذا الأصل الكبير، ونحن نقصد بهذا الأصول الكبرى المترتبة على قضية لا إله إلا الله.

وفي حقيقة الأمر من يدرك حقيقة لا إله إلا الله إدراكاً صحيحاً، ويدرك آفاق هذه الحقيقة والمراد منها وأهدافها سيدرك لا محالة أن هناك وسائل ضرورية لا تتحقق حقيقة لا إله إلا الله إلا بها فتصبح الوسائل التي لا بد منها لإقامة وتحقيق لا إله إلا الله في واقع الحياة البشرية، تصبح قضايا بديهية وفطرية لا تحتاج إلى استدلال خارجي عن إدراك حقيقة لا إله إلا الله.

فإذا عرفنا أن لا إله إلا الله تعني في جوهرها إقامة مملكة الله في الأرض، فلا بد أن يكون هناك منهجاً يربط الناس بالله عز وجل، ولا بد أن يكون لهذا المَلِك سبحانه "برنامج" يطالب به رعيته وعباده، وهذا "البرنامج" لا بد أن يجاهد الناس من أجل إقامته في الأرض، ويصبح الجهاد، كما يصبح المنهج قضايا بديهية، وتصبح أيضا الطاعة والالتزام قضايا بديهية لا يتحقق دين الله إلا بها، ثم تصبح الجماعة أيضاً قضية لا تحتاج إلى دليل من خارجها، وتصبح دلالة على إيمان الإنسان، وعلى صدق هذا الإيمان، وتصبح أيضاً إفرازاً طبيعياً وواجباً طبيعياً مترتباً على الحقيقة الأولى.

وقد كان ارتباط قضية الجماعة بقضية الإسلام، وانبثاقها الطبيعي منه، أمرا بديهيا لا يجادل فيه أحد، مثلها في ذلك مثل كل الأصول الكبرى كالجهاد والتشريع والحاكمية والسمع والطاعة، والتي ترتبط كلها بالأصل الكبير، وهو توحيد الله عز وجل وشهادة لا إله إلا الله.

وكما قلنا، فإن عديدا من القضايا الأساسية مثل الجهاد والتشريع والحاكمية وقضية الجماعة والارتباط بها وقضية الالتزام والطاعة كانت كلها قضايا لا تشغل بال الصحابة، ولا من تلاهم من أجيال المسلمين، لأنها لا تحتاج إلى نقاش ولا إلى حديث ولا جدل ولا استدلال ولا دليل، وإنما كانوا يعرفونها من خلال إدراكهم الصحيح لهذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ. ولا نجد أن هذه القضايا قد شغلت أي مساحة من مساحات الفكر والثقافة والعلم في حياة الصحابة وتابعيهم، إلا من حيث إقرارها كقضايا طبيعية.

لكن حينما بدأت الخلخلة في حياة المسلمين، وبدأ التمزق والتفرق، وبدأت أفكار جديدة تدخل لتصب في نهر الثقافة الإسلامية، عندها بدأ الحديث عن أهمية الجماعة وأهمية الالتزام والطاعة، والحديث عن حقوق الله وعن صفاته، وعن الجهاد، وعن غير هذا من القضايا.

وكلما زاد بُعد الناس عن الحقيقة الأولى الجوهرية البديهية البسيطة كلما برزت هذه القضايا البديهية كمعضلات تحتاج إلى حل، حتى إذا وصلنا إلى واقعنا المعاصر -والذي لا شك أننا فيه الآن أبعد ما نكون، من ناحية الزمن، ومن ناحية الالتزام، عن الصدر الأول من الإسلام- وجدنا أن هذه القضايا قد أصبحت معضلات شديدة التعقيد، وأصبحت ميادين للتلاعب وميادين للاختلاف وسوء الفهم، كما أصبحت ميادين لسوء القصد أيضاً.

ونحن حينما نعالج القضية الأولى، وحينما نقف أمامها طويلاً -وهي قضية العقيدة؛ لا إله إلا الله- سوف لا نجد أن هناك ضرورة ملحة، ولا أن هناك حاجة مُقلقة للحديث عن هذه القضايا كقضايا تحتاج إلى استدلال وإلى مناقشة.

وبالرغم من ذلك كله، ولأننا نعيش في هذا الواقع البائس، ولأننا نواجه أقواماً يجادلون في هذه البديهيات -حتى أنه وجد من يجادل في وجود الله ذاته سبحانه وتعالى- فنحن مضطرون، من باب مواجهة الواقع، أن نتحدث في مثل هذه الموضوعات.

فكما تحدثنا عن قضية "لا إله الا الله"، وكما تحدثنا عن شروط تحقيقها وما يتصل بها، وكما تحدثنا عما ينبغي أن يكون عليه الجيل الأول من أخلاق ومن سلوك ومن التزام ومن تربية، وكما تحدثنا عن طبيعة المنهج القرآني، وضرورة البداية بالعقيدة، وضرورة الالتزام بهذه العقيدة، وأنه لا يجوز أن تُنافَس هذه القضية بأي قضايا أخرى جانبية، وألا يستدرجنا أعداء الإسلام للحديث عن قضايا فرعية بعيداً عن تأسيس القضية الأساسية الأولى، ثم تحدثنا عن نشأة المجتمع المسلم والقضايا التي تنبثق عن هذا الموضوع، وعن الجهاد ومراحله وخصائصه -سواء في الواقعية الجدية لهذا الدين أو الواقعية الحركية- التي انبثقت منها قضية المرحلية، وأيضا قضية الجماعة كبديهية.

كما تحدثنا عن ذلك كله فإننا سنتحدث الآن -بعون الله- عن قضية الجماعة.

وقضية الجماعة هي إحدى هذه الموضوعات البديهية المنبثقة من عقيدة هذا الدين، والتي يجادل فيها المجادلون.

وإذا كان الجهاد لإقامة هذا الدين لا يمكن أن يتحقق من خلال جهد فردي، أو أفراد متناثرين، وإنما لا بد أن يتحقق من خلال تجمع على هذا الدين، له أهدافه وله وسائله، فمن ثم تصبح الجماعة في حقيقتها -دون أن نأتي بدليل واحد- تصبح ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي لجدية المسلم الخالص في إيمانه بالله عز وجل، وحرصه على إقامة هذا الدين.

ولا شك في أهمية هذه المقدمة، لأننا ينبغي أن نعيش مع هذا الدين بهذا اليقين. اليقين بأن هذا الدين كله، من أوله إلى آخره، حقيقة عظيمة، ومع كل عظمتها فهي قضية بسيطة بديهية، تفرض نفسها على الإنسان الصادق المخلص، وعلى كل إنسان عاقل، يريد الحق

لذات الحق، فلا يحتاج مثل هؤلاء العقلاء أن يبحثوا في قضايا من مثل: هل لا بد لنا أن نكون في جماعة؟ هل لا بد لنا أن نجاهد؟ هل لا بد لنا أن نلتزم بكل شيء؟ هل لا بد لنا أن نتحاكم إلى شرع الله؟

هذه الأسئلة كلها لا تعني إلا الفراغ والخلل عند من يسألها، لأن المعنى الحقيقي لهذه الأسئلة أن من يطرحها لا يفهم.. أو لا يعرف ابتداء ما هو هذا الدين. فإذا عرف حقيقة هذا الدين وجوهره فإنه لن يحتاج أن يتساءل عن هذه الأمور. لذلك رأينا أن هذه القضايا لم تكن محل تساؤلات عند أفراد الجيل الأول الذين تلقوا الإسلام غضا طريا، وكانوا على درجة من الجد والإصرار والوضوح والصراحة والصدق مع النفس، بحيث أنهم كانوا لا يناقشون هذه الأمور على الإطلاق.

وأي طائفة مؤمنة... وأي جماعة رائدة.. لا بد أن ترتفع عندها حقائق الإسلام إلى أن تكون بديهيات... بديهيات يحار الإنسان في الحديث عن أدلتها، ليس لعدم وجود هذه الأدلة، ولكن لأنها من الجلاء بحيث لا تحتاج إلى دليل، فإذا ظهرت الشمس في رابعة النهار لا يحتاج إنسان يبصر إلى دليل على وجودها. لكن يحتاج الدليل من يجادل بالباطل، أو من كان أعمى لا يرى ولا يسمع ولا يحس.

لكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه القضايا وعن أدلتها، لكي نكشف للناس عن الحقيقة ما داموا يحتاجون إلى ذلك.

ضرورة وجود الجماعة

سنتحدث عن هذه القضية البديهية البسيطة... قضية الجماعة، وهي قضية بديهية، لأن البشر متفقون، فطرةً وعقلاً، على أن أي عمل كبير لا يمكن أن يتم من خلال فرد أو أفراد، سواء كان عملاً دنيوياً أو عملاً أخروياً. وواقع البشرية أنها منذ أن وجدت قد التقت وتجمعت، وأقامت نظاماً، وأقرت حدوداً، وأقامت قوانين وعقوبات... لأن الإنسان -كما يقولون- مدني بالطبع، أو اجتماعي بالطبع، لا يمكن لإنسان أن يعيش بمفرده، فالإنسان منذ أن خُلِق خُلِق جماعة، رجل وامرأة، اجتمعا لكي يكوّنا هذه البشرية، فلم يعش آدم وحده، وإنما خلق الله له حواء، ليكونا أول جماعة في الواقع الإنساني، ثم جاءت الذرية، وظلوا مجتمعين، ويزدادون ويتجمعون في تجمعات بصورة أو بأخرى. فالجماعة كانت أساساً تاريخياً ارتبط بوجود الإنسان. وبالتالي فقضية الجماعة قضية فطرية بالنسبة للإنسان كإنسان، في أي مجتمع كان، جاهلياً أو إسلامياً. فلم يقل الجاهليون أبدا أننا نستغني عن الجماعة، ولا يستطيعون أن يقولوا ذلك. وأي نظام -شيوعي أو رأسمالي، بوذي أو هندوكي- لا بد أن يتعاون الناس فيه ليقوموا بأمر مجتمعهم معاً.

والذي يزيد في منظور الإسلام أنه يربط هذه القضية بالعقيدة. فلا يصبح الإنسان مختاراً في أن يكون في جماعة أو لا يكون. قد تقول الجاهلية أنّ الجماعة ضرورية، لكن الذي لا يريد أن يدخل الجماعة أو يعيش معنا فليبحث له عن مكان آخر، فهو حر في ذلك. لكن الإسلام لا يقول ذلك، **الإسلام يقول إن الجماعة هي الإسلام وأنه لا إسلام إلا بجماعة**، وأنه لا يحل للإنسان أن يكون خارجاً عن الجماعة. لا بد أن يكون مرتبطاً بجماعة وبإمام وببيعة وبمنهج. والفرق بين التصور الجاهلي للجماعة والتصور الإسلامي لها أن كلاهما يشترك في إقرار ضرورة الجماعة لإقامة الحياة البشرية، ولانتظامها، ولإنتاجها، ولأمان الإنسان؛ أمانه من الجوع أو الخوف، وكذلك ضرورتها لتقدم البشرية، فلا يمكن أن تتقدم البشرية إلا من خلال الجماعة، فهذه قضايا مشتركة بين الإسلام والجاهلية لا يناقشون فيها.

أما الفرق بين الإسلام وبين غيره فهو أن الإسلام يرى الجماعة ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي لا يتم إسلام المرء إلا به، وأن الإسلام لا يتحقق إلا بالجماعة، لأننا نعتقد أن الإنسان خلق ليعبد الله، ولن تقوم هذه العبادة إلا بالجماعة، التي تجاهد وتحافظ على دين الله، ليظل الناس عابدين لله.

أما الجاهلية فليست لها أهداف نهائية. أهدافها هي أن يعيش الناس ليأكلوا ويتمتعوا، فلا تصبح الجماعة قضية مصيرية بالنسبة لهم، وبالتالي يعتبرونها ضرورة، ولكنهم يتركونها لإحساس الإنسان بحاجته إلى الجماعة، فتفرض عليه من خلال حاجته هو، وليس من خلال حاجة الجماعة، ولا من خلال الهدف، وهم يعلمون أن من فطرة البشر أن يتجمعوا لحاجة بعضهم إلى بعض، لكنهم لا يلزمون الناس بالجماعة، فمن أراد أن يذهب بعيداً فليذهب.

ولكن الإسلام لا يقول ذلك، **الإسلام يفرض الجماعة فرضاً لمن يريد أن يكون مسلماً**، ولمن يريد أن يكون عبداً لله عز وجل، هذا هو الفرق الأساسي بين تصور المسلم للجماعة وتصور الجاهلية لها.

فقضية كون الجماعة ضرورة وبديهية وفطرة وقانون رباني لا بد أن يخضع له الناس قضية لا سبيل إلى إنكارها ولا إلى الجدل حولها. وحينما نتحدث نحن عن الجماعة فإننا نتحدث عنها من هذا المنطلق، منطلق أن الإسلام يراها صنو الإيمان، ولا يمكن أن يعيش المسلمون مسلمين إلا بأن يعيشوا في جماعة، وأن يتعاونوا على البر والتقوى.

والموضوعات الخاصة بالجماعة والتي سنتحدث عنها بعد هذه المقدمة.. تشمل الأحاديث الواردة في الجماعة، ليس لأن القرآن خلا من الحديث عن الجماعة، ولكن لأن الأحاديث الواردة نصت على كلمة الجماعة بصورة واضحة، ثم نتحدث أيضا عن مفهوم كلمة الجماعة أو ما يماثلها من المفاهيم الأخرى أو الألفاظ الأخرى التي تساويها أو تنفرد عنها مع اختلاف في المعنى يسير، فهناك مصطلحات أخرى تعني الجماعة في صورتها العامة، ولكن تختلف عنها في المفهوم الكلي أو تختلف عنها في جزئيات وتلتقي معها في جزئيات أخرى.

كذلك سنتحدث عن دعائم الجماعة المسلمة؛ ما هي دعائم الجماعة المسلمة وكيف تقوم.

كذلك سنتحدث عن المصالح التي تتحقق بقيام الجماعة ونتائج قيامها[٢٤].

وبعد ذلك سنتحدث عن خطوات البناء لهذه الجماعة المسلمة منذ نقطة الصفر وحتى نقطة النهاية. وأثناء هذا الأمر سنلتقي بقضايا تتصل بخطوات البناء مثل طبيعة الجماعة وخصائصها وأحوالها.

أولا: الأحاديث الواردة في الجماعة

وردت كلمة الجماعة في السنة الكريمة والحديث الشريف بمعان كثيرة، فهي قد تعني أهل العلم فقط، وقد تعني أهل الحديث فقط، وقد تعني أهل الحل والعقد فقط، وقد تعني الجماعة المؤمنة المنتظمة التي لها إمام، وقد تعني الجماعة التي ليست منتظمة ولا متمكنة وإن كان لها إمام. فالألفاظ التي وردت في الأحاديث تعني أكثر من معنى. ولكن المعنى الذي نقصده قصداً في الحديث الآن عن

٢٤ اعتمدنا في هذه الموضوعات الأربعة على رسالة العالمية "الدكتوراه" التي أعدها الدكتور يحيى إسماعيل وعنوانها (منهج السنة في العلاقة بين الحاكم والمحكوم) طبع دار الوفاء، المنصورة. مع تصرف لا يخفى على فطنة القارئ.

الجماعة هو الحديث عن ضرورة الجماعة بالنسبة للفرد، وضرورة انتماء الفرد لجماعة، وضرورة ارتباطه بإمام، وضرورة بيعته لإمام، وضرورة عدم خروجه عن الجماعة.

هذا الموضوع هو الذي يهمنا الآن، لأننا لسنا الآن بصدد الحديث عن أهل العلم، ولا عن أهل الحديث، ولا عن أهل الحل والعقد. فالحديث عن هؤلاء قد يكون مهما بالنسبة للمسلمين حينما تتكون الدولة، وتكون الجماعة الواحدة ذات الإمام الواحد قد تكونت.

وقد احتاج المسلمون أن يفسروا بعض معاني الجماعة من خلال حاجتهم في بعض الأحيان إلى تقرير مَن هو صاحب الكلمة الأخيرة؛ هل العلماء؟ أم أهل الحديث؟ أم أهل الحل والعقد؟ أم الإمام؟ فكانت تلك القضايا مرتبطة بواقع المسلمين وبواقع الفقهاء، أما بالنسبة لنا فواقعنا يرتبط بالموضوع الذي يهمنا -وهو الجماعة في أبسط صورها- أن يتجمع أناس على الحق ويجاهدون في سبيله ويرتبطون به.

وسنذكر الأحاديث الشريفة وأقوال العلماء التي تدور حول هذا الأمر.

أحاديث وردت فيها لفظة الجماعة ويراد منها الكثرة الممكنة المنتظمة على إمام واحد:

أخرج البخاري ومسلم والبيهقي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال (من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً فمات إلا مات ميتةً جاهلية)[٢٥].

وأخرج الطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: رأيت رسول الله ﷺ وهو قائل بكفه هكذا كأنه يشير شيئا (من فارق جماعة المسلمين شبرا أخرج من عنقه ربقة الإسلام، والمخالفين بألويتهم يتناولونها يوم القيامة من وراء ظهورهم، ومن مات من غير إمام جماعة مات ميتة جاهلية)[٢٦]. يعني أن المخالفين الخارجين عن الجماعة الذين لا يلتزمون بجماعة يتناولون ألويتهم -تعني كتبهم أو شاراتهم- يوم القيامة من وراء ظهورهم، وهي الصورة التي يأخذ الكافر أو الفاسق بها كتابه.

وأخرج الطبراني عن رسول الله ﷺ أنه قال (ثلاثة لا يسأل عنهم رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصيا، وأَمَة أو عبد أبق فمات، وامرأة غاب عنها زوجها قد كفاها مؤنة الدنيا فتبرجت بعده، فلا يسأل عنهم)[٢٧]. ويهمنا في هذا قوله ﷺ (رجل فارق الجماعة وعصى إمامه ومات عاصياً).

أخرج أحمد والبيهقي عن أبى مالك الأشعري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ (.. وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن؛ آمركم بالجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثي جهنم) قالوا: يا رسول الله وإن صام وإن صلَّى؟ قال (وإن صام وإن صلَّى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل؛ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل)[٢٨]. هذه هي الصفة التي سمى الله بها المؤمنين المسلمين لله والمؤمنين بالله، وهم عباد الله عز وجل الذين يرتبطون بالجماعة، وبالسمع والطاعة، وبالهجرة والجهاد في سبيل

٢٥ متفق عليه.

٢٦ الطبراني في الكبير وفيه حسن بن قيس وهو ضعيف، وقد ورد بعضه في الصحيح.

٢٧ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٢٨ هو جزء من حديث أخرجه أحمد في المسند ورجاله رجال الصحيح عدا علي بن إسحق السلمي وهو ثقة.

الله، ولا يدعون دعاوى الجاهلية، أيّ دعوى من دعاوى الجاهلية؛ وأولها الكفر والشرك والخروج عن الجماعة. حينما يكون الأمر كذلك لا تنفع صلاة ولا ينفع صوم.

وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٢٩].

وعن أبى هريرة -رضي الله عنه- عن رسول الله ﷺ قال (من خرج عن الطاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتةً جاهلية)[٣٠].

وعن عرفجة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (يد الله مع الجماعة والشيطان مع من خالف يركض)[٣١]. الشيطان يركض مع من خالف أي يصحبه.

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (من فارق الجماعة واستذل الإمارة لقي الله ولا وجه له عنده)[٣٢] وكان يقول هذا الحديث بمناسبة مقتل عثمان -رضي الله عنه-.

عن الحارث بن قيس قال لي عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-: يا حارث، أليس يسرك أن تسكن وسط الجنة؟ قلت: نعم، قال: فالزم جماعة الناس[٣٣].

وردت أيضا بمعنى الكثرة والسواد الأعظم من المسلمين المتفقين:

قال أبو أمامة الباهلي -رضي الله عنه-: عليكم بالسواد الأعظم، فقال رجل: ما السواد الأعظم؟ فقرأ أبو أمامة -رضي الله عنه- هذه الآية ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور: ٥٤][٣٤].

عن معاذ بن جبل -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والشاذة وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)[٣٥].

وعن أبى ذر -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال (اثنان خير من واحد وثلاثة خير من اثنين وأربعة خير من ثلاثة وعليكم بالجماعة فإن الله عز وجل لم يجمع أمتي إلا على هدى)[٣٦].

---

٢٩ أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجالهم ثقات.

٣٠ مسلم، صحيح.

٣١ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٢ أحمد ورجاله ثقات.

٣٣ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٤ رواه عبد الله بن أحمد والبزار والطبراني ورجاله ثقات.

٣٥ أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات.

٣٦ أحمد في المسند وفيه البحتري بن عبيد وهو ضعيف.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ (من عمل في الجماعة فأصاب قُبِل منه، أو قَبِل الله منه، وإن أخطأ غفر له، ومن عمل يبتغي الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار)[٣٧]. كأن الجماعة رداء وعصمة للمؤمن، إن أصاب قبل منه، وإن أخطأ غفر له. أما إذا فارق الجماعة فإن أصاب لم يقبل منه، وإن أخطأ فمصيره إلى النار.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ (يد الله مع الجماعة)[٣٨]. ويكفي لأن يحرص الإنسان على الجماعة أن تكون يد الله مع الجماعة، ومعنى ذلك أن يد الله ليست مع الفرد الشاذ عن الجماعة.

وللطبراني عن يسير بن عمر أن أبا مسعود -رضي الله عنه- لما قتل عثمان -رضي الله عنه- احتجب في بيته، فأتيته، فسألته عن أمر الناس فقال: عليك بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى يستريح بر ويُستراح من فاجر.

وروى الطبراني عن أبى مسعود -رضي الله عنه- أيضا حينما قتل عليّ -رضي الله عنه- قال له نفس الرجل: أنشدك الله، ما سمعت من النبي ﷺ في الفتن فقال: إنا لا نكتم شيئاً، عليك بتقوى الله والجماعة، وإياك والفرقة فإنها هي الضلالة وإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر -رضي الله عنه- بالجابية فقال: يا أيها الناس إني قمت فيكم كمقام رسول الله ﷺ فينا، فقال صلى الله عليه وسلم (أوصيكم بأصحابي ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يستحلف ويشهد الشاهد ولا يستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة، وإياكم والفرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة)[٣٩]. قال ابن الأثير رحمه الله في شرح هذا الحديث: أن الجماعة المتفقة من أهل الإسلام في كنف الله، ووقايته فوقهم، وهم بعيدون عن الخوف والأذى والاضطراب.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: الزموا هذه الطاعة والجماعة، فإنه حبل الله الذي أمر به في قوله تعالى ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣][٤٠]. فيوضح ابن مسعود أن المقصود بحبل الله هو الجماعة.

وردت أيضا بمعنى النظام والاتفاق:

في سنن أبي داود عن سمرة بن جندب -رضي الله عنه- أنه قال (كان رَسُولُ الله ﷺ يَأْمُرُنَا إِذَا فَزِعْنَا بالْجَمَاعَةِ وَالصّبْرِ وَالسّكِينَةِ، وَإِذَا قَاتَلْنَا)[٤١]. في مقابلة أي أمر مفاجئ وطارئ أو مخيف يفزع المسلمون إلى الجماعة، أي ينتظمون فيها وينظمون أنفسهم ويتفقون.

---

٣٧ الحديث ضعيف، وقد ورد عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: عليك بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة، واصبر حتى يستريح بر ويستراح من فاجر، رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٣٨ الترمذي، غريب ورجاله ثقات.

٣٩ الترمذي وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه.

٤٠ أخرجه الحاكم في المستدرك.

٤١ جزء من حديث له، قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي.

وردت أيضا بمعنى الكثرة المتفقهة من أهل العلم:

ورد في البخاري عن علي -رضي الله عنه- قال: اقضوا كما كنتم تقضون فإني أكره الاختلاف حتى يكون الناس جماعة أو أموت كما مات أصحابي. يقصد جماعة على رأي واحد من أهل العلم، ولذلك فإن كل ما انفرد به شخص من أحكام كان إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب، وهذا ما يراد من لفظ الجماعة عند الفقهاء، وهو ما يسمى عند الأصوليين بإجماع أهل الحل والعقد وهم الذؤابة من أهل الحل والعقد في ميدان الحكم. يقول الغزالي رحمه الله: "فَمَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْخَوَاصُّ فَالْعَوَامُّ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ الْحَقَّ فِيهِ مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ لَا يُضْمِرُونَ خِلَافًا أَصْلًا فَهُم مُوَافِقُونَ أَيْضًا فِيهِ. وَيَحْسُنْ تَسْمِيَةُ ذَلِكَ إجْمَاعَ الْأُمَّةِ قَاطِبَةً، كَمَا أَنَّ الْجُنْدَ إذَا حَكَّمُوا جَمَاعَةً مِنْ أَهْلِ الرَّأْيِ وَالتَّدْبِيرِ فِي مُصَالَحَةِ أَهْلِ قَلْعَةٍ فَصَالَحُوهُمْ عَلَى شَيْءٍ يُقَالُ هَذَا بِاتِّفَاقِ جَمِيعِ الْجُنْدِ. فَإِذًا كُلُّ مُجْمَعٍ عَلَيْهِ مِنْ الْمُجْتَهِدِينَ فَهُوَ مُجْمَعٌ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ الْعَوَامّ وَبِهِ يَتِمُّ إجْمَاعُ الْأُمَّةِ"[42].. وبهذا المعنى يقول الأصوليون أن الإجماع هو اتفاق أهل الحل والعقد في أمة محمد ﷺ على أمر من الأمور، والإجماع معلوم أنه حجة شرعية يستدل بها على الأحكام الشرعية.

وردت بمعنى اتفاق أهل الشوكة والجمهور الذين يقام بهم الأمر:

بحيث يمكن أن تقام بهم مهام الإمامة، وهذا يفسر قول الرسول ﷺ (وعليكم بالجماعة).

قال ابن تيمية: "أَمَّا الْإِجْمَاعُ عَلَى الْإِمَامَةِ، فَإِنْ أُرِيدَ بِهِ الْإِجْمَاعُ الَّذِي يَنْعَقِدُ بِهِ الْإِمَامَةُ، فَهَذَا يُعْتَبَرُ فِيهِ مُوَافَقَةُ أَهْلِ الشَّوْكَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ مُتَمَكِّنًا بِهِمْ مِنْ تَنْفِيذِ مَقَاصِدِ الْإِمَامَةِ"[43].

هذه بعض الأحاديث التي وردت عن رسول الله ﷺ في أمر الجماعة، وهي أحاديث كثيرة، لا تدع فرصة لإنسان صادق أن يتصور، ولو للحظة واحدة، أنه من الممكن أن يعيش بلا جماعة، أو أن تنتظم حياة الناس ومصالحهم بدون جماعة، أو أن يقوم الإسلام أصلاً بدون جماعة، فهذا المعنى بديهي، وكان الصحابة يفهمون ذلك جيدا، ويتعاملون مع هذه القضية بهذه الصورة الواضحة جداً والحمد لله.

ثانيا: مرادفات كلمة الجماعة

هناك بعض الألفاظ التي تقارب لفظ الجماعة وتتفق معها في أصل المعنى، ولكنها تختلف بعض الاختلاف في جانب من هذا المعنى، ومنها: الطائفة، العصبة، الفئة، الفوج، الثلة، الزمرة، الحزب، الشيعة، القوم، الملأ، الأمة.

كل هذه الألفاظ وردت في القرآن وفي الأحاديث، وتعني معنى الجماعة، أو تختلف عنها في جانب، ولكنها تتفق معها في أصل المعنى.

الطائفة: يقول الرسول ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون)[44]، هنا لفظ: الطائفة، بمعنى الجماعة.

---

٤٢ المستصفى. ج١. ص١٤٣.

٤٣ مناج السنة النبوية ج٨ ص٣٥٦.

٤٤ صحيح، أخرجه مسلم.

لفظ: **العصبة**، استعمل كالطائفة تماما في الحديث الذي رواه معاوية -رضي الله عنه- (لا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة)[٤٥].

ومنها لفظ: **الفئة**، وهي الجماعة المفترقة عن غيرها، وجمعها فئات.

أما لفظ: **الفوج**، فهو الجماعة الكثيرة قال تعالى ﴿ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴾ [النصر: ٢].

لفظ: **الثلة**، وهي الجماعة تندفع في الأمر جملة.

الزمرة، جماعة لها صوت أو لها حضور.

الحزب، الجماعة تتحزب على أمر، أي تتعاون، وحزب الرجل: الجماعة التي تعينه فيقوى أمره بها.

الشيعة، وهي الجماعة المائلة بمحبة، والتشيع معه الحب، وأصلها من الشياع وهي الحطب الدقاق الذي تجعل مع الحطب في النار فتشتعل.

القوم: هم الرجال الذين يقوم بعضهم مع بعض في بعض الأمور.

الملأ: وهم الأشراف الذين يملؤون القلوب هيبة والعين إجلالا.

الأمة: هي كل جماعة يجمعهم أمر ما؛ إما دين واحد أو زمان واحد أو مكان واحد.

هذه كلها تعبيرات ترد في الحديث والقرآن، فيفهم منها معنى الجماعة.

من هنا يتبين أن قضية الجماعة قضية بديهية، تنبثق وتترتب ترتيبا طبيعيا على موضوع الإيمان بالله عز وجل والتوحيد والجهاد في سبيل الله، وأي إنسان لو تصور نفسه فردا منعزلا عن الجماعة فسيكون كالغصن الذي يموت بعد قليل حينما يُقطع من الشجرة. **فقضية الجماعة من منظور الإسلام قضية إيمانية ومقتضى عقدي، وهي الوجه الآخر لقضية لا إله إلا الله.** فإذا آمن الإنسان بقضية لا إله إلا الله وشهد بها فلا بد أن يقر في حسه في نفس اللحظة أنه منتدب لأن يدعو الناس إلى هذه الحقيقة، ليصنع منهم جماعة تجاهد لإعلاء كلمة الله وإقرار دين الله في الأرض، فهي قضية مرتبطة بشهادة لا اله إلا الله ارتباط معنى وتوقيت والتزام، فكأن قضية الجماعة هي الوجه الآخر لقضية لا اله إلا الله. والعجيب أن هذا المعنى قاله أحد المستشرقين "ألفريد كاونتل سميث" الذي تحدث عن أهمية الجماعة عند المسلمين وعند الشيوعيين، بينما قال أن الجماعة لا تعني شيئاً عند الفكر النصراني أو المسيحي. فالشيوعية ترى أنه لا بد أن يقوم حزب وتقوم طائفة تحمل هذا الفكر وتلك العقيدة وأن يجاهدوا في سبيلها كما فعلوا في واقع الأمر تماما. والإسلام أيضا يرى أن الجماعة ضرورة إيمانية لا يتم إيمان المسلم إلا بها.

فإذا كانت الجماعة بهذا الوضوح، وهذا الوجوب، وهذه الضرورة التي نراها ضرورة إيمانية ومقتضى عقدي فإن المسلم الصادق الذي يشهد أن لا إله إلا الله يجد -إذن- أن الجماعة تمثل إفرازاً طبيعياً لهذا الإيمان.

---

٤٥ صحيح، مسلم عن معاوية -رضي الله عنه-.

ثالثا: دعائم أو أسس الجماعة المسلمة

لعل هذه الدعائم التي نتحدث عنها سترسم الصورة النموذجية المطلوبة فعلاً من الجماعة المسلمة كي تكون قائمةً فعلاً على أمر الله تحقيقاً لألوهية الله في الأرض، فلا يكون دين غير دين الله عز وجل. ولكن بطبيعة الحال قد تتخلف بعض هذه الدعائم في وقت من الأوقات. فبقدر الدعائم المتاحة للجماعة المسلمة بقدر ما تقوم بواجبها، وعليها أن تحرص على استكمال باقي الدعائم للوصول إلى الهدف النهائي.

الدعامة الأولى: العقيدة

فلا بد من الاجتماع على العقيدة الحقة في الله عز وجل، لأن الجماعة لا تسمى جماعة مسلمة إلا إذا التقت على العقيدة الصحيحة، عقيدة الأنبياء، والتي أمروا أن يبلغوها للناس، والتي من أجلها خُلِق الناس، وهي الأمر الذي نتحدث فيه وندندن حوله باستمرار، وهي قضية عبوديتنا لله. فالجماعة المسلمة إذا كانت مجتمعة لهذا الهدف فبداهة لا بد أن يكون اجتماعها على عقيدة صحيحة تنبت وتقوم على القرآن والسنة.

الدعامة الثانية: القيادة

ولا بد من إمام ينتظم به أمر الجماعة ويقوم بتكاليفها. وفي الحديث المشهور عن حذيفة -رضي الله عنه-: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنّا كنا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال (نعم) قلت: وهل بعد هذا الشر من خير؟ قال (نعم وفيه دخن) قلت: وما دخنه يا رسول الله؟ قال (قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر) قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال (نعم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها) قلت: يا رسول الله صفهم لنا، قال (هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا) قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك، قال (تلزم جماعة المسلمين وإمامهم)، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال (تعتزل تلك الفرق كلها ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك)[٤٦]. صدق رسول الله ﷺ، فوصية الرسول ﷺ هي أن تلتزم جماعة المسلمين وإمامهم حيث إن هذه الجماعة وهذا الإمام هو الذي يعصم المؤمن من دعاة على أبواب جهنم. ونحن نعرف أن الرسول ﷺ أمر بالإمارة في أقل من ذلك، فقال (إذا كنتم ثلاثة فأمروا أحدكم)[٤٧]، وكما يقول ابن تيمية وغيره: "فَإِذَا كَانَ قَدْ أَوْجَبَ فِي أَقَلِّ الْجَمَاعَاتِ وَأَقْصَرِ الِاجْتِمَاعَاتِ أَنْ يُوَلَّى أَحَدُهُمْ: كَانَ هَذَا تَنْبِيهًا عَلَى وُجُوبِ ذَلِكَ فِيمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ"[٤٨].

---

٤٦ متفق عليه.

٤٧ أخرجه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بإسناد صحيح، وأخرجه البزار بإسناد صحيح من حديث عمر بن الخطاب، وأخرج البزار أيضا بإسناد صحيح من حديث عبد اللّه بن عمر مرفوعا بلفظ "إذا كانوا ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم" وأخرجه بهذا اللفظ الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد صحيح.

٤٨ مجموع الفتاوى. ج٢٨. ص٦٥.

الدعامة الثالثة: العلم

علمٌ بالإسلام، وبحقيقة هذا الدين، بالعقيدة والمنهج، بالحلال والحرام، وبالواقع، وبأصول الفقه وقواعد الشريعة، وبروح الشريعة ومقاصدها، حتى تستطيع الجماعة المسلمة أن تختار الطريق الصائب في كل خطوة من خطواتها، وإليه يشير قول الرسول ﷺ فيما أخرجه الشيخان والترمذي وابن ماجة عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوساً جُهَّالاً، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فَضلّوا وأضلّوا)[٤٩]، لذلك لا بد من أن يكون للجماعة قيادة عالمة تقية لكي تحفظ الناس من الضلال ومن الضياع.

الدعامة الرابعة: المنهج

لا بد أن يكون للجماعة منهج واضح، ووسائل واضحة، وعمل واضح تقوم به وتلتزم به أيضا. أخرج أحمد بن أبي عبد الرحمن قال: "حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات فلا يأخذون في العشر الأخر حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا: فعلمنا العلم والعمل"[٥٠].

فلا يكتفي المؤمنون بإقامة الجماعة، ولا بوجود القيادة، ولا بوجود حتى العلم، ولكن لا بد من أن يتحقق هذا العلم في صورة عمل، وفي صورة سلوك، كما قال الصحابة، وكما كانوا يفعلون، كانوا يقترئون، فتعلموا العلم والعمل جميعا.

والعلم المقصود هنا هو طاعة الله عز وجل، وليس المقصود ذلك العلم ولا العمل المراد به التباهي أو الجدل أو المماراة. فلا بد أن يكون العلم خالصا لله عز وجل (ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل)[٥١]، ولا بد أن تكون الجماعة متوافقة ومتفاهمة ومتلاحمة في العمل حتى يتحقق بها عمل منتج، أما إذا كان هناك خلاف، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فلن يكون هناك عمل، كما جاء عن الأوزاعي قال: (إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم باب الجدل ومنعهم العمل)[٥٢]. ولا شك أن المؤمنين سيكونون أبعد ما يكونون عن الجدل والمماراة، وسيكون ديدنهم أن يتفاهموا ويتناقشوا بغية الوصول إلى الحق والصواب، ليس انتصارا للرأي، ولا إثباتا للذات، ولا للمماراة والجدل، أو المغالطة، أو أي شيء آخر غير طاعة الله.

الدعامة الخامسة: وجود أهل الرأي والمشورة

لا بد أن يكون للجماعة أهل رأى ومشورة، يصدر الجميع عن حكمهم، ويرجعون إلى مشورتهم، لأن الشورى -كما نعلم- أصل من أصول النظام الإسلامي. والإمام الحق لا بد أن يستشير، وكذلك فعل رسول الله ﷺ. وهناك فرق بين عملية الشورى في ذاتها وبين النتيجة المترتبة عليها، فالإمام المؤمن التقي لا يستقل بعقله، ولا يعتمد فقط على عقله ولا على علمه، وإنما هو دائماً يحس أنه ضعيف بغير إخوانه، وبغير من معه، لذلك تجده يستكثر من المشورة، لأن الإكثار من المشورة هو في الحقيقة استكثار من العقول. فالمشورة هي

---

٤٩ متفق عليه.

٥٠ أخرجه أحمد في مسنده. ٥/٤١٠. والحديث مرسل ورجاله ثقات.

٥١ أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم وحسنه السيوطي.

٥٢ اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي ص ٧٩.

عبارة عن اجتماع عقول أهل الحل والعقد، والمؤمنون الأتقياء يصبون في بوتقة واحدة. فلا شك أنه كلما كثرت الشورى وكلما كثر عدد المشيرين كلما كان الرأي صائبا أو أقرب إلى الحق. فالإمام الحق لا يستبد، ولا يقلل من قيمة الشورى، وإنما يحرص عليها حرصا شديدا، والقرآن أمر بذلك في آيتين؛ قال تعالى ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى: ٣٨]، وقال سبحانه ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وبعد المشورة يكون العزم ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

الدعامة السادسة: الأرض

والدعامة السادسة للجماعة هي أرض تقيم عليها الجماعة ويظهر فيها سلطانها. وهي آخر خطوة في عمل الجماعة المسلمة، أن ييسر الله لها أرضا تقيم فيها دولة الحق، وهذه هي الصورة النموذجية المطلوب أن تسعى إليها أي جماعة؛ أن تقيم الإسلام في الأرض، ولن يقوم الإسلام إلا من خلال إقامة أمة الإسلام متمثلة في دولة وإمامة وقيادة. وهذا يستلزم أرضاً تقوم عليها الجماعة وتقوم عليها الدولة. فإذا كانت الجماعة قوية صحيحة فستتوارى أسباب الوهن، وتجتمع على إمام واحد، فتكون بذلك هي الجماعة التي لا جماعة غيرها، ويكون الزمان زمان عافية كما كان في عهد الخلافة الراشدة. أما في زمان الفتنة فستمرض الجماعة، وتتداعى عليها الأمم، وتتفكك أواصرها، ويتنازع أفرادها، وتتوزع في جماعات متناحرة.

فحيثما كان الزمان زمان عافية فالجماعة التي يعُدَّ الخارج عليها عاصيا، هي الجماعة الكاملة التي انتظمت على الإمام الواحد، فإذا مات مات ميتة جاهلية ويلقى ربه ولا يمين له والجماعة هنا هي الجماعة الجامعة التي انتظمت على إمام واحد. سئل الإمام أحمد عن حديث رسول الله ﷺ (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية)[٥٣] فقال: ما تدري ما الإمام؟ الإمام الذي يُجْمِع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا إمام[٥٤]. وهذا ما نعبر نحن عنه بالجماعة الجامعة التي يكون الخروج عليها خروجا على الإسلام ومعصية وفسقا. ويؤكده كلام الإمام أحمد في تفسيره لحديث الرسول ﷺ (من مات وليس له إمام مات ميتة جاهلية) أنه الإمام الذي يجمع عليه المسلمون، كلهم يقول: هذا إمام.

وحيث يكون الزمان زمان فتنة فكل ما يقع به الكفاية في واحد من مقومات الجماعة أو دعائمها الستة تكون به جماعة الوقت التي ينبغي التزامها، العقيدة بالطبع ضرورة أساسية، أما بقية الأمور (الإمامة، والقيادة، والعلم والعمل، وأهل الحل والعقد، والأرض) فحسب الممكن. فإذا قامت جماعة بعقيدة وإمام وعلم فقد لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا إلا أن يعبدوا الله عبادة فردية، ويكون هذا -فقط- هو المتاح لهم. أما إذا استطاعوا أن يقوموا بالدعوة، أو أن يبلغوا، أو يجاهدوا، فيجب ذلك عليهم، وهكذا حسب الممكن، فتكون هذه الجماعة هي جماعة الوقت التي ينبغي التزامها. ولذلك ينبغي على كل فرد صادق أن يبحث عن جماعة الوقت، أو بمعنى آخر جماعة الحق، فإذا وجدها فلا يجوز له أن يخرج عليها. ولكن إذا خرج عليها -فحتى إن كان له عند الله حكم- فإنه عند البشر لا يكون خارجا عن الجماعة الجامعة، ذلك لأننا في زمن الفتنة. فعند الله قد تكون هذه الجماعة هي الجماعة الوحيدة التي على الحق، والتي لا يجوز الخروج عليها. ولكنّ هذا في علم الله، ولكنْ في علم البشر هي جماعة من الجماعات.

---

٥٣ الحديث أخرجه الطبراني وهو ضعيف، ورواه مسلم بلفظ (من مات وليس في عنقه بيعة.. الحديث).

٥٤ منهاج السنة ١/١٤٤، والحديث أخرجه مسلم بلفظ (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية).

فإذا وجدت جماعات كثيرة، فما هي الجماعة التي يتوفر فيها شروط الجماعة الحقة؟

لا شك أن الفرد مطالب ألا ينضم إلى جماعة إلا بعد أن يتحرى إن كانت هي جماعة الوقت أو أقرب الجماعات إلي الحق أم لا، فلا يجوز له أن يرتبط بأي جماعة تستهويه؛ سواء بشكلها، أو عددها، أو منظرها، أو ضجيجها، أو سهولتها أو صعوبتها، أو غير ذلك. ليس هذا هو مقياس الجماعة الحقة. الجماعة الحقة هي ما كان عليه الرسول ﷺ وصحابته. يقول ابن حزم رحمه الله[٥٥]: إن لم يكن للناس إمام ممكّن فكل من قام بالحق حينئذ فهو نافذ. أي كما قال ابن مسعود -رضي الله عنه-: الجماعة ما وافق الحق ولو كنت وحدك[٥٦]. فإذا لم يكن للناس إمام ممكّن فحسب الإمكان، فقد لا يكون هناك إلا إنسان واحد قائم بالحق.

وفي العمل يجب اتباع ما كان عليه الصحابة -رضي الله عنهم-، فخيار هذه الأمة هم الصحابة رضوان الله عليهم، فلم يكن في الأمة أعظم اجتماعا على الهدى ودين الحق وأبعد عن التفرق والاختلاف منهم.

الجماعة الحقة هي التي ترتبط على العقيدة الحقة وعلى إمام حق، ويكون علمها علما حقا، وتعمل بعمل الصحابة -رضي الله عنهم- لأنه أصوب صورة للالتزام الحق، لأنهم كانوا أكمل القرون وأفضلها.

رابعا: المصالح التي تتحقق من خلال إقامة الجماعة

إقامة دين الله في الأرض: أول مصلحة تتحقق من إقامة الجماعة المسلمة هي اقامة دين الله في الأرض. وهذه مصلحة تتمشى مع مراد الله من الخلق، وهذا المراد لا يتحقق من خلال فرد أو اثنين أو ثلاثة، وإنما يتحقق من خلال تجمع طائفة من الناس أو ثلة أو حزب كبير من الناس يعملون من أجل إقامة هذا الحق.

تحقيق الإسلام لأفرادها وصدقهم: فاللجوء إلى الجماعة والانضواء تحت لوائها دلالة على صدق الإنسان الذي يدعو إلى الله عز وجل، فلا يكون داعيا لله ثم يكتفى بالكلام أو بتأليف كتاب، أو يكتفى بأن يعبد الله في بيته. لا بد أن يسعى لإقامة الجماعة.. كما سنتحدث بعد ذلك في هذا الموضوع

لا يكون الجهاد إلا بالجماعة: كما قال الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤] فالقوم هم الجماعة. فإذن الجهاد لا يقوم إلا بالجماعة، ولم يعد الله سبحانه وتعالى الفرد بالنصر ولا بالمعية، إنما وعد الجماعة بالمعية.

صيانة الدماء والأموال: فبالجماعة تصان الدماء والأموال. فبعصمة الدار أو بعصمة الجماعة ومنعة الإسلام المستمدة من قوة المسلمين وجماعتهم يعصم دم المؤمن والمسلم وتصان الأموال، بل إن دماء أهل الذمة المستأمنين وكل من يعيش في دار الإسلام تصان بوجودهم في دار الإسلام.

---

٥٥ المحلى. ج١١. ص٣٥٤.

٥٦ سنن الترمذي. ج٤. ص٤٦٧. وصححه الألباني.

ولذلك أجمع الفقهاء على أنه إذا صلى المرء وحده لم يحكم بإسلامه، ويقصدون طبعا إذا كان ذلك اختياره وكان دأبه، وكأنه يرى أن حكم الصلاة هو الانفراد بها، ولكن مادام هناك من يتحقق بهم أمر الجماعة في الصلاة لا بد أن يصلي جماعة، فأما إذا أصر الإنسان على أن يصلي دائما وحده ويترك الجماعة أجمع الفقهاء على أنه لا يحكم بإسلامه إلا في رواية رواها داود بن رشيد[٥٧]، لأن الصلاة أو جماعة الصلاة إعلان عن الإسلام وعن الارتباط بالإسلام، فالذي يحرص على جماعة الصلاة كأنه يعلن بعمله أنه مسلم، وأنه مرتبط بالإسلام، أما إذا تنحى الإنسان عن الجماعة فيكون شاذاً وخارجاً. لذلك كانت مهمة الجماعة كبيرة جداً في كل شيء وفى كل أمر.

توجب الحكم بإسلام من يأرز إليها: فالجماعة توجب الحكم بإسلام من يأرز إليها، ولا شك أن الإنسان الذي لا يكون موصولا بالجماعة المسلمة يضع نفسه في موضع الشبهة في إسلامه إذا وجدت جماعة مسلمة ولم ينضم إليها. فهو بذلك يكون متناقضاً مع ادعائه، فيشك في صدقه وفي ولائه. وقد ذكر ذلك الشريف الرضي.

صون كرامة المسلمين وبث الروع والمهابة في قلوب الكافرين: لا شك أن الجماعة كلما قويت وكبرت، وأصبح لها شوكة، وأصبح لها أيضا وجود وحضور، ثم أصبح لها دولة، فإن هذا يعني أنها تصون كرامة المسلمين، وتصون أمنهم، وتزرع المهابة لهم في قلوب أعدائهم. فمن ثم تصبح إقامة الجماعة المسلمة ضرورة من ضرورات الأفراد. فهي فضلا عن كونها ضرورة إيمانية فإنها ضرورة اجتماعية: "فإن خوف أهل الحرب من جماعة المسلمين لا من واحد منهم، ولكن من جماعتهم، والقوة للمسلم في دار الإسلام بجماعة المسلمين". فالمسلم قوي بالجماعة.

الشهادة لأفرادها بالخيرية: يقول الرسول ﷺ (ما من مسلم يموت فيشهد له أربعة من أهل أبيات جيرانه الأدنين أنهم لا يعلمون عنه إلا خيراً إلا قال الله تبارك وتعالى قد قبلت قولكم أو قال شهادتكم وغفرت له ما لا تعلمون)[٥٨]، فكأن من أهمية الجماعة ونتائجها الرائعة أنها تضمن لنا شفاعة المؤمنين -وهم الجماعة- فإذا شهد أربعة من المؤمنين على رجل أو على إنسان بالخير أمضى الله ما قالوا رغم علمه بسيئاته الكثيرة كما ورد في الحديث (وغفرت له ما لا تعلمون). وهذه نعمة كبيرة، فلا شك أن كل واحد منا له معاص كثيرة لا يعلمها الآخرون... فالمسلمون سيشهدون لأخيهم شهادة طيبة جداً وهم لا يعلمون ما فعله، والله سبحانه يقبل شهادتهم ويغفر له ما لا يعلمون، وهذه نعمة.. ومكسب ضخم جداً، فالأمر كبير فعلاً... قال رسول الله ﷺ (يوشك أن تعرفوا أهل الجنة من أهل النار) قالوا: بم ذلك يا رسول الله؟ قال (بالثناء الحسن والثناء السيئ، أنتم شهداء الله بعضكم على بعض)[٥٩]. فالله عز وجل يقبل شهادة المؤمنين. فلنحرص على الجماعة، ولعل ثناء بعضنا على بعضنا بالحق يغفر لنا ما لا يُعلم عنا، وهذا ثناء أو إكرام لهذه الأمة، فإذا شهد الأبعدون والأدنون لفرد فلا شك -كما في الحديث الآخر- يوضع له القبول في الأرض.

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال "مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها خيراً فقال نبي الله ﷺ (وجبت، وجبت، وجبت) ثم مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها شراً فقال نبي الله ﷺ (وجبت، وجبت، وجبت) فقال عمر بن الخطاب -رضي الله عنه-: فدى لك أبي وأمي مُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها خيراً فقلت (وجبت، وجبت، وجبت) ومُرَّ بجنازة فأُثنِيَ عليها شراً فقلت (وجبت، وجبت، وجبت) فقال رسول الله ﷺ (من أثنيتم عليه

---

٥٧ السير الكبير ١/١٠٥.

٥٨ الحاكم وقال صحيح على شرط المسلم، ووافقه الذهبي.

٥٩ أحمد وابن ماجة، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير الحسن بن عرفة وهو ثقة.

خيراً وجبت له الجنة، ومن أثنيتم عليه شراً وجبت له النار. أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض)[٦٠]. كأن الله يأخذ بشهادة الجماعة المؤمنة، فإذا أثنت على الإنسان رضي الله عنه، وإذا ذَمَّته لم يرض الله عنه. وهذا لا يكون إلا للجماعة المسلمة. ولذلك يجب أن يحرص الإنسان على أن تكون الجماعة راضية عنه، لأنه لو كانت الجماعة غير راضية عن فرد منها فهذا معناه أن هذا الشخص ليس خيِّراً -طالما أن الجماعة تسير على منهج الله عز وجل- ويستطيع الإنسان أن يعرف قيمته عند الله من خلال قيمته عند الجماعة المسلمة وعند قيادة الجماعة. فإذا كانت قيادة الجماعة راضية عنه وأفراد الجماعة راضون عنه فإنه يكون أقرب ما يكون إلى الله، وكلما قلّ هذا الرضا وقلت هذه الثقة كلما عرف الشخص أنه بعيد بقدر ما نقص من الثقة أو من رضوان الجماعة عليه. وهذا مقياس دقيق جدا. لذلك يجب أن يحرص كل فرد على أن يتحسس أمره عند قيادة الجماعة، وعند أفراد الجماعة؛ هل هو مرضيٌ عنه؟ أم عليه ملاحظات؟ وعليه أن يعالج هذه الملاحظات بسرعة حتى ترضى عنه الجماعة. وتروي لنا السنة أن امرأة كانت في زمن الرسول ﷺ تعلن الفجور، ولم يكن عليها بينة، لكن الناس كانوا يقولون إنها فاجرة، فقال الرسول ﷺ (لو كنت راجماً أحداً بغير بينة لرجمت هذه)[٦١]. فدلالة الحديث واضحة أن الرسول ﷺ كان يقر في نفسه شهادة الجماعة المسلمة عن هذه المرأة، لولا أنه كان حريصا على إقامة الإجراءات الصحيحة حتى لا يكون الأمر بعده فوضى. ولا شك في أهمية هذا الأمر.

الجماعة عصمة للإنسان من كيد الشيطان: وكما جاء في الحديث (إن الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والشاذة وإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد)[٦٢]. وفي الحديث (ما من ثلاثة في قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية)[٦٣]، والشيطان إلى الواحد أقرب وهو من الاثنين أبعد، لذلك كلما كان الإنسان في تجمع كلما كان معصوما من كيد الشيطان، وهذه بركة أيضا من بركات الجماعة.

يقول ابن تيمية: "المسلمون إذا اجتمعوا وكثروا يكون داعيهم إلى الفواحش والظلم أقل من داعيهم إذا كانوا قليلا، فإنهم في حال الاجتماع لا يجتمعون على مخالفة شرعية أو مخالفة شرائع الإسلام"[٦٤].

الجماعة تكون قوة للمسلم والمسلم قوي بالجماعة: يقول أبو حنيفة: إن الحربي إذا دخل دار الإسلام[٦٥] بغير أمان فأخذه مسلم، فإنه يكون فيئا لجماعة المسلمين لا لفرد[٦٦]، لأن هذا الفرد لم يأخذه بقوته وانما أخذه بقوة الجماعة، فيكون فيئا للمسلمين. وبهذا يكون المسلمون قوة للفرد وليس للفرد بنفسه قوة.

---

٦٠ متفق عليه.

٦١ البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد عن ابن عباس.

٦٢ أحمد والطبراني في الكبير ورجال أحمد ثقات.

٦٣ هذا لفظ أبي داود، وأخرجه أحمد والنسائي في المجتبى، ومدار الحديث في الثلاثة على السائب بن حبيش الكلاعي الحمصي، قال الدارقطني: صالح الحديث، وذكره ابن حبان في الثقات.

٦٤ منهاج السنة ٢٣٧/٤.

٦٥ سنتحدث عن تعريف دار الإسلام ودار الحرب وأقسامهما بعد الانتهاء من ذكر المصالح المتحققة بقيام الجماعة المسلمة.

٦٦ السير الكبير ٣٩٩/١.

تعين المسلم على القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: إلا أن يكون فردا ضعيفا متخاذلا.

الجماعة تعصم المسلمين من الضلالة: وكما قال ابن مسعود -رضي الله عنه- "عليكم بالجماعة فإن الله لم يجمع أمة محمد ﷺ على ضلالة"، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال (إن أمتي لا تجتمع على ضلالة)[٦٧]. يقول ابن مسعود -رضي الله عنه- "ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن عند الله وما رآه المسلمون سيئا فهو عند الله سيئ"[٦٨].

وهذه مسألة مهمة جدا في الجماعة والحركة، فكثيراً ما يكون لأحد الأفراد رأي أو تصرف ويصر عليه حتى لو اجتمع أمامه عشرة أو عشرون أخ من إخوانه الذين يعتد برأيهم. ينبغي أن يعرف المسلم أن ما رآه المسلمون حسنا فهو حسن وما رأوه سيئا فهو سيئ. فليس نوعا من الاختيار والتفضل على الجماعة أن يقول الفرد: سوف أتنازل عن رأيي لكم. المسألة أكبر من هذا. إن هذا حق في ذاته، حسن في ذاته، لأنه كما أمر الرسول ﷺ (عليكم بتقوى الله ولزوم جماعة محمد ﷺ فإن الله لم يجمع جماعة محمد ﷺ على ضلالة)[٦٩]، وهذا ابن مسعود -رضي الله عنه- يقول: إن دين الله واحد وإياكم والتلون في دين الله وعليكم بتقوى الله ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرق.

الجماعة حصن يأوي إليه المسلم عند الشدائد: إن الجماعة المسلمة سواء كانت في حالة استضعاف أو في حالة قوة تُقوّي المسلم وتحميه.. وقد استثنى الله عز وجل من الفرار يوم الزحف الذين يتحرّفون لقتال، أو ينحازون إلى فئة، من أجل أن هذه الفئة هي الجماعة، وهي القوة، أما إذا كان هارباً على وجهه أو لشأنه فلا شك أنه يقع في المعصية ﴿ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ ﴾ [الأنفال: ١٦] والفئة هنا هي الجماعة والقوة، ولا شك أن الإنسان عندما يواجه خطراً ويكون معه جماعة من الناس يكون أكثر شجاعة وأكثر طمأنينة وأكثر ثباتا، فمما لا شك فيه أن المسلم في المعركة حينما يرى أن معه أخوة آخرين مسلمين يجاهدون ويقاتلون ويتقدمون فإنه يتقوى بهم، ويسعى إلى أن تثبت قدمه ويثبت قلبه على البلاء، أما إذا كان وحده فإنه يمكن أن يضعف ويهرب. وفي أوقات المحن، لا شك أن وجود الناس مع بعضها يخفف عنهم كثيراً عما لو كان الإنسان منفرداً بنفسه، ولا شك أن أي خطر يخف وتقل متاعبه حينما يكون الإنسان مع الجماعة، ولقد قال سمرة بن جندب -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ كان يأمرنا إذا فزعنا بالجماعة والصبر[٧٠]. وقال رسول الله ﷺ (إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلك من الشيطان) فلم ينزلوا بعد ذلك إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى يقال: لو بسط عليهم ثوب لعمهم[٧١] لأن الرسول ﷺ نهاهم عن حتى التفرق في الشعاب والأودية حينما كانوا يسيرون في سرية فأمرهم رسول الله ﷺ أن يتجمعوا.

---

٦٧ تقدم تخريجه.

٦٨ منهاج الاعتدال. ص٧٧.

٦٩ الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي من قول أبي مسعود الأنصاري، وأخرج الطبراني في الكبير (إن الله عز وجل وعدني في أمتي وأجارهم على ثلاث؛ لا يعمهم بسنة، ولا يستأصلهم عدو، ولا يجمعهم على ضلالة) ورجاله ثقات.

٧٠ أبو داود والحديث حسن.

٧١ أخرجه أبو داود.

الحق يتحدد بالجماعة: يقول الإمام العيني: في قوله صلى الله عليه وسلم "التارك لدينه المفارق للجماعة" قيد به للإشعار بأن الدين المعتبر هو ما عليه الجماعة، فالتارك للجماعة كأنه ترك دينه، وربط الجماعة بالدين، وربط وجود الإنسان في جماعة بوجوده على الدين، لأن الدين المعتبر هو ما عليه الجماعة، ويستنبط استنباطاً لطيفاً من قول الله عز وجل ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ [النساء: ٥٩] يقول: إن الله عز وجل لم يقل في حالة عدم التنازع الرجوع إلى كتابه وسنة رسوله باعتبار أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وما يراه المسلمون حسناً فهو حسن، لكن فرض الرجوع حين التنازع. فإذن من بركة الجماعة أن الحق كأنما يتحدد بالجماعة، فما رأته الجماعة حقاً يكون -إن شاء الله حقاً عند الله- فهذه أيضاً من بركات الجماعة، بحيث يصبح الإنسان المؤمن حريصاً جداً على معرفة رأي الجماعة في كل أمر من أموره حتى يطمئن أنه على الصواب، بل يصبح الأمر كبيرة وجريمة حينما يعرف رأي الجماعة ويصر على ما يراه مخالفاً لها ويستكبر، فيضيع على نفسه المصلحة، كما أنه يرتكب إثماً في ذات الوقت.

دفع المشقة عن المؤمنين: من طبيعة الجماعة أنها تدفع المشقة عن المؤمنين. فقد يفرض المؤمن على نفسه أشياء شاقة، ولكن الجماعة تختار الوسط العام الذي يحتمله القوي والضعيف، فيصبح أمر الجماعة أقل مشقة وأقل إتعابا للمؤمن وللناس. ولا شك أن رد الأمر للجماعة يجعل الأمور تأخذ شكلاً واقعياً أكثر مما قد يظن الفرد حينما يختار لنفسه. وقد يختار الفرد لنفسه عزيمة ضخمة جداً ربما لا يستطيعها، فيُحَمّل نفسه ما لا يطيق، ولكن الجماعة ترى الأمر الذي يحقق مصلحة الجميع، والذي يكون في استطاعة الجميع، فيصبح الأمر ميسراً أفضل مما يختار الإنسان لنفسه.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله ﷺ (الفطر يوم يفطر الناس والأضحى يوم يضحي الناس)[٧٢]، كأن الأمر مرتبط بالناس، أي بالجماعة، فلا يجوز أن يشذ مسلم عن إجماع المسلمين حتى يكون معهم، فالذي ينفرد بأمر يشقي نفسه. يقول ابن القيم: "في هذا الحديث دليل على أن المنفرد بالرؤية لا يلزمه حكمها لا في الصوم ولا في الفطر"[٧٣]، فحتى لو رأى ولكن الجماعة لم تر فقررت يوم فطر أو يوم أضحى غير ما يرى هو، فهو ملزم برأي الجماعة ولا تلزمه رؤيته المنفردة. وفي هذا حكمة كبيرة لبيان عظم وضخامة دور الجماعة وأهميتها حتى في أمر مستيقن. فلا يجوز أن يأتي أحد ليقول: أنا لن أتبعكم، أنا رأيت بعيني... فهذا تفريق للجماعة، ولو اجتمعت الجماعة على خطأ خير من أن تفترق على صواب.

تعويد المؤمن أن يعيش من خلال الآخرين: لا شك أن الإنسان المؤمن حين يكون مرتبطاً بالجماعة لا يسهل عليه التضحية بها، ولا الفرار من خطر يدهمها، وهو يؤثر سلامة نفسه، ولا يوقع أحداً غيره بالخطر ليهرب هو منه، وإنما على العكس من ذلك، نرى في سيرة الصحابة والتابعين وكل المؤمنين الصادقين أنهم كانوا يؤثرون الجماعة على أنفسهم. ولا شك أن هذه الروح لا توجد إلا فيمن يعيش في تجمع أو في جماعة، فتنمو مشاعر الحب والإيثار والتضحية في نفسه، أما الإنسان الذي يعيش وحده فلا شك يتضخم عنده إحساسه بالأنانية والحرص على نفسه وحب الذات والحرص على مصلحته، فيرتكب بذلك آثاماً كثيرة، فلا شك أن من المصالح التي تتحقق من قيام الجماعة تعويد المؤمن أن يعيش من خلال الآخرين الذين يحبهم، ويؤثرهم على نفسه، ويرى خيره في خيرهم، فلا يستأثر بخير، ولا يضحي بهم من أجل مصلحته أو من أجل نفسه، وهذا كله يدخل في باب التضحية؛ سواء بالرأي أو بالجهد أو بالمال، فينزل عن رأيه

٧٢ الترمذي وقال حسن صحيح غريب، وله (الصوم يوم تصومون والفطر يوم تفطرون والأضحى يوم تضحون) وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

٧٣ تهذيب ابن قيم الجوزية على معالم السنن ٣/٣١٤.

لرأي الآخرين -أو بمعنى آخر- لرأي الجماعة، وهذه بركة ولا شك، فيضحي بنفسه من أجل الآخرين... يضحي بماله ووقته وجهده من أجل الآخرين. فلا شك أن الجماعة تحقق هذا المعنى في نفس المؤمن....

الجماعة قوة على الخير وعصمة من الشر ورحمة للمؤمنين: قال أيضاً رسول الله ﷺ (الجماعة رحمة والفرقة عذاب)[٧٤]، وقال أيضاً (يد الله مع الجماعة ومن شذ، شذ في النار)[٧٥].

فلا شك أن الجماعة قوة على الخير وعصمة من الشر ورحمة للمؤمنين، والفرقة عذاب، فلا يستسهل أحد منا أن يقول أنا مختلف مع الجماعة أتركها وأمضي، أو القيادة ظلمتني.. هذه أمور يسعى إليها الشيطان. والشيطان يحرص جداً على إيقاع المسلم حينما لا يتقي الله في أمر نفسه فيسهل على الشيطان جره بعيداً عن الجماعة، فإذا قويت عقيدتنا في الجماعة وفي أهميتها، سواء أهميتها العقدية أو أهميتها المصلحية بالنسبة للفرد أو بالنسبة للجماعة يصبح ما يلقاه الإنسان في الجماعة -مهما كان- خيراً له من أي مكسب يكسبه وهو فرد بعيد عنها.

والإنسان المسلم يعرف أن الشيطان مع من خالف كما قال الرسول ﷺ (يد الله مع الجماعة والشيطان مع من خالف يركض)[٧٦]، يفرح بأن هذا مخالف. ونحن كما رأينا ما ترك أحد الجماعة إلا واجتاله الشيطان، ما فعل أحد هذا إلا وخابت حياته وتناقض مع نفسه وخسر كثيراً، لأن الشيطان معه يركض.. فالذي يركض الشيطان معه كيف يحصل له العصمة أو الخير.

تحقيق البركة: تحقق الجماعة البركة في كل شيء، حتى في أقل الأمور؛ حتى في الطعام والشراب. وكما قال الرسول ﷺ.. قالوا: يا رسول الله إنا نأكل ولا نشبع، فقال (لعلكم تأكلون متفرقين)، قالوا: نعم، قال (فاجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله عليه يُبارك لكم)[٧٧].

فهذه البركة تشمل حتى بركة الأكل وبركة الشراب وبركة الملبس، وكل شيء، وحتى اللعب والترويح عن النفس يصبح مباركاً وطاعة حينما نجتمع عليه، نُرَوِّح عن أنفسنا لنتفرغ لما هو أحسن وأفضل وأكرم... يقول الرسول ﷺ (كلوا جميعاً ولا تفرقوا فإن البركة مع الجماعة)[٧٨] وهذا عام، ليس في الطعام والشراب فقط، (إن البركة مع الجماعة) البركة في كل شيء، فلا ينفرد أي واحد ليقول: من حقي أن أتصرف من رأيي أو من مزاجي أو... فهذا أمر -فضلاً عن كونه صورة سيئة- فإنه أيضاً يقلل البركة.

الجماعة هي عصمة للإنسان تعصمه من الهلاك الذي توعد الله به البعيدين عنها: يقول الرسول ﷺ (إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة وخلصت فرقة واحدة وأن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ستهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة)، قالوا: يا رسول الله من تلك الفرقة؟ قال (الجماعة)[٧٩]. فالجماعة لا شك تعصم الإنسان من الهلاك، لذلك كان الصحابة لا يختلفون ما استطاعوا

---

٧٤ أحمد والطبراني في الكبير والبزار ورجالهم ثقات.

٧٥ الترمذي، غريب ورجاله ثقات.

٧٦ الطبراني في الكبير ورجاله ثقات.

٧٧ أبو داود وابن ماجة ورجاله ثقات في الطريقين.

٧٨ ابن ماجة، والحديث ضعيف، ويتقوى ما به من ضعف بالحديث السابق.

٧٩ أحمد في المسند ورجاله ثقات غير أنه مرسل، وأخرجه أبو داود من رواية أبي سلمة عن أبي هريرة -رضي الله عنه- وأخرج الحاكم بعضه، والترمذي وقال حسن صحيح مع بعض الاختلاف، وابن ماجة بعضه بإسناد صحيح.

في أي أمر. فهذا عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- أخذ على عثمان -رضي الله عنه- أنه أتم في منى وكان الرسول ﷺ يقصر الصلاة دائما في منى، ورغم ذلك كان يتبع عثمان -رضي الله عنه- في هذا، ولما قالوا له: عبت على عثمان ثم صليت أربعا؟! قال: الخلاف شر. فالفرقة شر[٨٠].

الجماعة تساعد على التخلص من آفات الحقد والشحناء والخيانة: لا شك أن المسلم الذي يعيش في جماعة ويتربى على الإسلام يسلم قلبه من آفات الحقد والشحناء والخيانة، وذلك غير الإنسان الذي يعيش وحده، فلا يتربى ولا يسمع الخير ولا يسمع المواعظ ولا يسمع التذكير من إخوانه، فهذا -لا شك- ستنبت في نفسه نباتات سامة كثيرة، ولكن حينما يعيش داخل جماعة، فالجماعة ستنقي كل ما ينمو فيه من أخطاء، فتعينه على سلامة القلب، وهذا لا يتم إلا بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر كما قال الله عز وجل ﴿ وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر] الإنسان في خسر لأنه وحده، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأنهم في جماعة يُنتفع بها.

كذلك دعوة المؤمن تكون مقبولة إن كان في جماعة: قال ﷺ (نضر الله امرؤ سمع مقالتي فبلّغها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاثة لا يُغل عليهن قلب مؤمن إخلاص العمل لله والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من وراءهم)[٨١]، فلا شك أن دعوتهم مستجابة، فالإنسان الذي يحرص على إخلاص العمل والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم سيضمن قبول دعائه ودعاء المسلمين أيضاً له، وينتفع بذلك.

الجماعة تحرز المؤمن من الغفلة: ذكر ذلك الإمام الشافعي فقال: "وإنما تكون الغفلة في الفرقة، فأما الجماعة فلا يمكن فيها كافةً غفلة عن معنى في كتاب الله ولا سنة، ولا قياس إن شاء الله"[٨٢] فالإنسان يمكن أن يغفل، لكنه عندما يكون في جماعة إذا غفل فالأغلب ألا يغفل الآخرون، فالجماعة تحرز المؤمن من الغفلة عن أي شيء في كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ فأي أمر نتشاور فيه ونتفاهم فيه لا شك أن نصيب فيه الصواب والحق، لكن الإنسان إذا اعتمد على نفسه ورفض رأي الآخرين أو رفض مشورة الآخرين باعتبار الخصوصية أو اعتبار الكتمان، فإنه سيخسر كثيراً. وكلما استشار الإنسان أكثر، وكلما فتح قلبه لإخوانه وقياداته كلما كثرت فائدته ونال بركة تلك المشورة وذلك الانفتاح.

إقامة الدين لا تتم إلا بالجماعة: وقد كان أمر الله عز وجل للأنبياء ألا يتفرقوا، لأن إقامة الدين لا تقوم إلا باجتماع أهل الحق ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الشورى: ١٣]، فإذا كانت هذه وصية الله للأنبياء، فهي أولى للمؤمنين، الوصية بالائتلاف والجماعة، والنهي عن الافتراق والاختلاف.

الجماعة تحقق معنى الولاء والبراء: فمعنى الولاء والبراء لا يتم إلا من خلال التجمع، فلا بد للمؤمن أن يوالي ويعادي لا بد له أن يوالي المؤمنين ويعادي الكافرين، ولا شك أن هذا يكون من خلال الارتباط في جماعة، لأن الولاء يفرض على المسلم هذا الارتباط وهذا

---

٨٠ أخرجه أبو داود وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة.

٨١ ابن ماجة من طريقين أحدهما صحيح، وقد وثق الهيثمي السند.

٨٢ الرسالة ٤٧٥.

الولاء النفسي والشعوري، المادي والمعنوي، وهكذا يقول الله تعالى ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [المائدة: ٥٥]، ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [المائدة: ٥٦]. ويقول ابن تيمية "موالاة الله ورسوله لا تتم إلا بطاعة أمره، وكذلك المؤمنون لا تتم موالاتهم إلا بطاعة أمرهم وهذا لا يكون إلا إذا كان متفقاً"[٨٣].

قبول العمل الصالح لا يكون إلا لمن يعيش في جماعة: وخطؤه مغفور له. أما إذا شذ فلا عمله الصحيح يقبل، ولا عمله الخطأ يغفر.

أخرج الطبراني والبزار عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ (من عمل لله في الجماعة فأصاب قبل الله منه وإن أخطأ غفر الله له، ومن عمل يبتغي الفرقة فأصاب لم يتقبل الله منه وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار)

هذا ولقد كنت حريصاً فيما سبق على أن أذكر مصالح كثيرة للجماعة لأنها تلقي أضواء على فهمنا للجماعة، فلا يكون فهمنا للجماعة أنها مجرد واجب شرعي أو عقدي نحن نعمله دون أن نحس بما يحققه من مصالح، أو ما يؤدي إليه من فوائد للفرد أو للمجموع ولمصلحة الإسلام، بل مصلحة البشرية، ولكن حينما نعدد هذه الأمور نلمح الخطوط الرفيعة والكثيرة لكل الأوجه لهذه الفريضة المهمة جدا في حياة الإنسان.

فإذا كانت كل هذه المصالح المادية منها والمعنوية الفردية فيها والجماعية مترتبة على وجود الجماعة فإنه يصبح حكم الجماعة واضحاً فلا يشك أحد أنها من أوجب الواجبات ومن أخطر المقامات التي ينبغي على المؤمن أن يقوم بها. وباعتبار قاعدة ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب تصبح الجماعة واجبا دينيا مفروضا لأنه إذا كان واجباً إقامة دين الله وإقامة الإسلام وتحقيق الألوهية في الأرض وكان ذلك لا يتم إلا بالجماعة فإن الجماعة تصبح واجبة، بل أكثر من الواجب.. أو كما نقول إنها مقتضى عقدي وضرورة إيمانية يلزم المؤمن الحريص على دينه القيام بها، ويؤدي التهاون فيها إلى أن يضل الإنسان (فإنما يأكل الذئب من الشاة القاصية والشاذة).

فالجماعة المسلمة تأوي الإنسان المسلم، فهي إيواء وحصن للمسلم، وأي إنسان يترك الحصن إلى الشعاب وإلى الصحراء وإلى الغياهب لا شك أنه يضر بنفسه ويعرضها للضرر يقينا، فحرص المسلم على الجماعة يساوي تماما حرصه على دينه وعلى عبوديته لله عز وجل، لأنه إذا لم يتم الواجب إلا بهذه الجماعة فيكون التفريط في الجماعة يساوي التفريط في دينه وفي عبوديته لله عز وجل.

وكما قلنا؛ قبل ذلك فإن اجتماع المؤمنين على خطأ خير من تفرقهم على صواب. الخطأ والصواب غير الحق والباطل. فالحق حق واحد، ولا يجوز أن نجامل على الباطل إطلاقا، فيجب أن نجتمع على الحق، وأن يفرقنا الحق أيضا، فلا يجوز أن نجتمع على الباطل.

ولكن الصواب والخطأ شيء آخر، فهما يقعان في الأمور الاجتهادية التي تخضع لاجتهاد البشر، فقد نختلف في قضية حركية، في قضية اجتماعية، في توزيع المال، في توزيع التكاليف، في أي قضية اجتهادية، وقد يكون اجتهاد القيادة في هذا خطأ، أو نحن نرى أنه خطأ.. فلنجتمع على هذا الخطأ فهو ليس مضرة، لأنه على أي الأمرين نحن مطالبون بما هو أهم منه وهو الوحدة وعدم الفرقة. فالفرقة أمر خطير جدا ومنكر كبير، بينما الاجتماع على الخطأ قد يكون منكرا أصغر، فلا أحرص على إنكار منكر أصغر لكي أحدث من خلاله منكرا أكبر، وهذا لا يجوز أصلا. وكما نعلم أن المخطئ في اجتهاده مثاب، ومعنى ذلك أنه ليس معصية قال ﷺ: (إذا اجتهد الحاكم فأصاب

٨٣ منهاج السنة ٤/٢٣٥.

فله أجران وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر)[٨٤].. إذن فهو مثاب على خطئه، وإذا أصر على ما يراه وأمر الجنود به فهم مثابون من خلال طاعتهم له، وسيأخذون أجرهم، كما سيأخذ هو أجر اجتهاده، مادام الأمر ليس حقاً وباطلاً.

ولا شك أن هذا التعبير يقصد به منتهى الاحتراس عن التفرق عندما تختلف اجتهاداتنا. ولا شك أن كل واحد عندما يجتهد في أمر ويصل إلى نتيجة لا بد أن يكون ممتلئا اقتناعا بما يصل إليه، ثم قد يفاجأ أن الآخرين غير مقتنعين بهذا الأمر، فإذا امتنع الاتفاق تفرقت الجماعة.

فإذا كنت أنا مقتنعا باجتهادي وأنت مقتنع باجتهادك فما الفيصل بيننا؟ الفيصل بيننا أنه لا بد أن يكون هناك مرجح، والمرجح هنا كما أراده الإسلام هو القيادة. فعندما تفصل في أي أمر يكون فصلها هو المرضي عند الله ولو كان خطأ، والصواب يكون غير مرضي عند الله ولو كان صوابا إذا تفرقنا عليه، فلا يظن إنسان أنه إذا قبل اجتهاد الإمام في هذا أنه يتنازل عن شيء من دينه، بالعكس هو يلتزم دينه بذلك، فما دام الأمر ليس فيه نص محكم جلي بل هو مجال من مجالات الاجتهاد فطاعة القيادة في اجتهادها هو الواجب على المسلم في هذه الحال حتى لا تسود الفوضى ويقع الاضطراب في الصف المسلم. وهذا معنى ما قلته إن الاجتماع على خطأ خير من التفرق على صواب. وهناك أحداث كثيرة في تاريخ الإسلام حدث فيها هذا. وقد تكون نتائجها فيها بعض الآلام، ولكن هذا لم يغير رأي المسلمين في هذا الأمر، فلا ينبغي أن يغير رأينا في هذه القاعدة أن هذا الاجتهاد قد حدث منه بعض الضرر، ولا يجوز أن نقول: لو أننا لم نلتزم به لكان أفضل! الالتزام به أفضل، والذي حدث هو ابتلاء كان سيحدث به أو بغيره.

هذه القاعدة لا تبطل أبدا حتى لو حدث في بعض الأحيان أن ابتلانا الله بشيء نتيجة اجتهاد أمرائنا بأمر، وفي هذه الحال لا ينبغي أن نعير بعضنا بعضا، ولا نتلاوم من أجله، وإنما كما في القاعدة الأخرى -المؤمنون متضامنون ويسعى بذمتهم أدناهم- حتى لو أن امرأة أجارت جيشا أجاره المؤمنون، إلا في حالة واحدة؛ لو أن هذه الإجارة ستجر خطرا ماحقا على المسلمين، فللإمام أن ينبذ إلى هؤلاء على سواء، لا يلغي إجارة هذه ولكن ينبذ إليهم على سواء حتى تظل للمؤمن ذمته، وهذ الاحتراز مطلوب حتى لا يأتي مؤمن ضعيف الإيمان فيجير جيشا لمجرد أنهم وعدوه أنهم سيعطونه عدة ملايين أو سيجعلونه ملكا، وتكون في هذه الإجارة هزيمة للمسلمين، فإذا رأى المسلمون أن في إنفاذ إجارة هذا الشخص ضررا أكبر على المسلمين فإن لهم أن يردوا هذه الإجارة، ولكن ليس غدرا، بل ينبذون إلى هؤلاء على سواء، ويعطونهم فرصة للاستعداد ولا يأخذونهم بغتة، مثل ما حدث عندما كان الجيش التركي على وشك أن يدخل بطرسبرج وكانت هذا المعركة حاسمة في احتلال تركيا لأوروبا، فكان يمكن لأوروبا كلها أن تسقط بعد سقوط بطرسبرج لأن سقوط بطرسبرج تعني سقوط روسيا وهي كانت من أكبر الدول وأخطرها، فسقوطها يعني سقوط أوربا كلها، ولكن الذي حدث أن قيصرة روسيا وهبت كل ما عندها من ذهب لقائد الجيش التركي إذا أجلى جيشه عن المدينة أو سكت عن الحرب، وبالتالي لم تسقط المدينة وتغير التاريخ. وهكذا يمكن أن يأتي شخص ضعيف الإيمان فيجير جيشا طمعا في حظ من الدنيا في لحظة حاسمة، وهنا يمكن للإمام أن يتدخل فيسقط هذه الإجارة ولكن ليس غدرا، وإنما ينبذ إلى هؤلاء القوم على سواء ويعطيهم فرصة للاستعداد.

فالمؤمنون متضامنون، ولا يعيب بعضهم على بعض، ولا يتخاصمون، فإذا اجتهد أحدهم اجتهادا ظهر بعد قليل أنه خطأ فإن ذلك لا يعيبه ولا ينقص مكانته. فهو حينما اجتهد كان يتحرى الصواب ويرى الأمر على قدر جهده. فكون الأمر ظهر خطؤه بعد ذلك لا يستوجب أن يُعيَّر ولا يُتهم كما يفعل الجاهليون بعضهم مع بعض، وإنما نعد الأمر قدرا من أقدار الله كما حدث في أحد وفي غيرها؛ أن رسول الله

٨٤ البخاري في الصحيح من حديث عمرو بن العاص -رضي الله عنه-.

ﷺ كان يعلم أنه سيصاب، وأن بعض أهله سيقتل وكان رأى رؤيا، وكان رأيه ألا يخرج من المدينة، ورأى شباب الصحابة أن يخرجوا فخرج معهم رغبة في أن يعلمهم درسا لن ينسوه، ولم يحدث أن رسول الله قال لهم أنتم الذين تسببتم في هذا الأمر، بل أُمر رسول الله ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وظلت القضية كما هي لم ينقصوا حقهم فيها.

وهذا حديث أورده الحاكم وصححه عن عبد الله بن مسعود قال (الزموا هذه الطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، فإن ما تكرهونه في الجماعة خير مما تحبونه في الفرقة، وإن الله لم يخلق شيئا إلا جعل له منتهى، وإن هذا الدين قد تم وإنه صائر إلى نقصان).. فيصبح أمر الالتزام بالجماعة أمرا ضروريا حتى لا تجتاح الانسان الفتن التي تمر على الناس، فيصبح أمر الالتزام بالجماعة هي حبل الله الذي أمر بالالتزام به، وأن ما يكره الإنسان في الجماعة خير مما يحبه في الفرقة، وهذا أمر مما يتعبد الإنسان به، فيسمع الإنسان ويطيع فيما أحب وكره، لأن ليس كل ما يراه الأمير يرضي كل الناس، فإرضاء الناس أمر صعب، ونحن نختلف في طريقة إحساسنا بالأمور ورؤيتنا لها وعلمنا وحكمتنا، فبالتأكيد سنختلف، وهذا في ذاته ليس عيبا؛ أن ترى أنت أمرا وأرى أنا أمرا آخر، هكذا عقلي أدى بي وعقلك أدى بك، ولكن الخطر ألا نجتمع على شيء، ويظل كل منا معجباً برأيه، ويستهين بالجماعة، فمهما كان الأمر الذي سنلتزم به حتى لو كان مما أكره فهو خير عند الله وخير لي في الدنيا والآخرة مما أحب إن كان هناك فرقة.

هذه قاعدة مهمة جدا؛ ألا يسير الإنسان مع هواه، ولا يسير وراء راحته، ولا يسير حتى وراء اجتهاده الذي يعتقد فيه الصواب مادام يتناقض مع أمر الجماعة واجتهاد الجماعة، فحتى لو كره أمرا فستعجبه أمور، وإن كنت أنا في هذه المرة سأكره ما صدر لي من أمر ففي المرة القادمة ستكره أنت، ونتبادل المواقف، فلو أن كل ما كره أحد شيئا ضاق به وعصاه ما قامت جماعة في الأرض؛ لا إسلامية ولا جاهلية. في الجاهلية نرى الأقلية يلتزمون بقرارات الأغلبية، يتعادون ما يتعادون، ونجد في النهاية حينما ينتصر مرشح على مرشح يهنئه ويدعو له ويقول سأكون تحت أمرك وسأتعاون معك، وتنتهي الخلافات ما دام الرأي النهائي كان كذا.. الأغلبية في أي برلمان في العالم تقرر أمر المعركة وأمر الموت والحياة وأمر الفقر والجوع بالأغلبية، ولو أغلبية صوت أو اثنين أو ثلاثة، ويمكن أن يتقرر بسبب الصوتين أمور خطيرة جدا على الأمة، وفي كثير من الأحيان قد تكون ضررا حقيقيا، لكن بما أنهم اتفقوا على هذا فهم يلتزمون به مهما كان. فهذا أمر يفعله الكفار لأنهم يعرفون أن مصلحتهم في أن يتجمعوا وأن يكون لهم مرجع يرجعون إليه.. فإذا كان هؤلاء يرجعون إلى عقولهم أو إلى باطلهم أو إلى الطاغوت ورغم ذلك يصرون على هذه القاعدة، فأولى بنا نحن المسلمين أن نتمسك بهذه القاعدة ونحن مرتبطون بحبل الله وبيننا كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فلا شك أن الإنسان عندما تتضخم ذاته سيرى الخير فيما يراه هو وحده ضاربا عرض الحائط برأي الأخرين.. وهذه أبأس خطة يخطها إنسان لنفسه والعياذ بالله.. فلا شك أن الخير فيما تراه الجماعة.. هذه قاعدة مهمة جدا..

سئل ابن عباس عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل لا يشهد جمعة ولا جماعة قال "هو في النار".. وكثير من الناس يظن ذلك.. يظن أنه يستطيع بمفرده أن يكون شيئا.. هذا يصوم النهار ويقوم الليل، ولكنه مستغن عن الناس.. مستغن عن المؤمنين.. يقول ابن عباس "هو في النار" رغم أن الرجل لا يرتكب معصية ظاهرة بالمفهوم البحت.. يصوم النهار ويقوم الليل لكنه لا يحضر جمعة ولا جماعة.. يعني لو لم يصم بالنهار ولم يقم الليل وحضر الجماعة فهذا خير له.. فلا يتبعن إنسان منا هواه ويستأثر به هذا الهوى فيضيعه.

فلا شك أن هذا أمر من أهم الأمور التي ينبغي أن نفهمها عن الجماعة؛ أنها واجب وفريضة تعوق كل فريضة أخرى، لأنها أعلى فرائض الإسلام. وكما نقول: إنها مقتضى عقدي لأنه بدون الجماعة لا تتحقق هذه العقيدة.. والله أعلم.

دار الإسلام ودار الحرب

والحديث عن الجماعة المسلمة يقودنا إلى الحديث عن دار الإسلام ودار الحرب.

ونقول: إن دار الإسلام هي الدار التي تُحكم بشريعة الله، ودار الكفر أو دار الحرب هي الدار التي لا تُحكم بشريعة الله. فالعالم في شريعة الإسلام من حيث تطبيق الأحكام وعدمها وأمن المسلمين وخوفهم ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: دار الإسلام:

وهي دار أمن وسلام للمسلمين، ويدخل فيها كل البلاد التي يتحقق فيها سلطان المسلمين، سواء أكان المسلمون فيها أغلبية أو أقلية. ويدخل فيها أيضا كل البلاد التي دخلت في ذمة المسلمين، والتزم أهلها أحكام الإسلام ولو لم يكن فيها مسلمون. فخيبر -مثلا- كانت في عهد رسول الله ﷺ لا يسكنها إلا اليهود، ولم يكن فيها من المسلمين إلا عبد الله بن رواحة -رضي الله عنه-، حيث كان أميرا عليهم. فكان الواقع أنه لم يكن هناك مسلمون، لكنهم كانوا خاضعين لأحكام الإسلام التي تقوم فيها، لذلك كانت خيبر دار إسلام. وهكذا كل الأماكن التي يسكنها مسلمون يستطيعون أن يظهروا أحكام الإسلام ولا يمنعهم من ذلك مانع تعد دار إسلام.

وهذا الشرط قد يفهمه بعض الناس على أن المقصود هو إظهار الشعائر كالصلاة والصوم، والأمر ليس كذلك، فالمقصود هنا من قول الفقهاء هو إظهار أحكام الإسلام وليس مجرد إظهار الشعائر. فمثلا في وقت التتار؛ كان التتار في أول الأمر غير مسلمين، ولكن ظل المسلمون تحت حكمهم يحكمون بشرائع الإسلام، فيكون حكم هذه الدار أنها دار إسلام، وتظل كذلك إلى أن يُمنع إقامة الأحكام الإسلامية فتنقلب دار كفر أو دار حرب. وهذا الاحتراز مهم.

ويدخل في دار الإسلام كل ما يتبعها من جبال وصحار وأنهار وبحيرات، وما يقال عنه "حدود الدولة" سواء كانت جوا أو بحرا أو أرضا أو جبالا، فكل ما عليها يعد من دار الإسلام ويعد داخلا في حكم دار الإسلام. وكذلك كل مكان في دار الحرب يعسكر فيه مسلمون، مثل السفارة في أي دولة، تعتبر أرضا للدولة التي تمثلها السفارة، وكذلك المعسكر الذي يعسكر فيه المسلمون في دار الحرب يعد من دار الإسلام، وتعد المراكب الحربية قياساً على هذا من دار الإسلام، بحيث لا يكون لغير المسلمين سلطة عليها، حتى لو كانت في بحر للأعداء، فإذا دخلته سفينة حربية فهي جزء من دار الإسلام، ينبغي على دار الحرب أن يحترموها ويعاملوها على أنها جزء من دار الإسلام.

وتعد أيضا البلاد دار إسلام حتى لو تعدد فيها الحكام واختلفوا، فمثلاً زمن الدولة العباسية في بغداد كانت هناك الدولة الأموية قائمة في الأندلس، وكانتا كلتاهما على الإسلام. ففي مجموعهما كانتا تعدان دار إسلام، وأي مسلم كان يستطيع أن يتحرك داخل هذه الحدود الواسعة.

ودار الإسلام يمكن أن نقسمها إلى عدة أقسام:

دار العدل: وهي التي تقيم الإسلام وتحمي السنة، وعلى رأسها الخليفة الشرعي للمسلين.

دار البغي: وهي التي يسيطر عليها الخارجون على الإمام الحق ولو حكموا بالإسلام.

دار البدعة: وهي التي سيطر عليها المبتدعون وأظهروا فيها بدعتهم.

دار الردة: وهي التي ارتد أهلها، أو سيطر عليها المرتدون، أو كان أهلها كافرين خضعوا لحكم المسلمين ثم نقضوا العهد وسيطروا عليها. وهذه تعد جزءاً من دار الإسلام باعتبار إلزام المسلمين في دار العدل بأن يردوا هذه الدار إلى حوزة دار الإسلام. لكن دار الردة في ذاتها إذا ارتدت ولم تحكم بشرع الله فإنها لا تعد دار إسلام، ولكن باعتبارها كانت جزءا من دار الإسلام تصبح هذه أول ما ينبغي استرداده على الخليفة العدل.

الدار المسلوبة: وهي الدار التي استولى عليها كافرون من خارج أرض الإسلام وكانت في الأصل دار إسلام.

وبهذا الاعتبار لهذين النوعين من الديار -دار الردة والدار المسلوبة- فإن الفقهاء عندما يعتبرونها دار إسلام لا دار كفر فإنهم يقصدون بذلك أن الإلزام يقع في أعناق المسلمين بأن يردوها للإسلام.

القسم الثاني: دار الحرب:

وهي كل البلاد الأجنبية التي هي دار خوف وعداء للمسلمين، والتي لا تحكم بشريعة الإسلام.

وتنقسم دار الحرب إلى قسمين: دار حرب بيننا وبينهم ميثاق وتسمى دار عهد؛ ودار حرب ليس بيننا وبينهم ميثاق وتسمى دار كفر أصلية.

خامسا: خطوات بناء الجماعة المسلمة

والآن.. كيف تخطو الجماعة المسلمة خطواتها في واقع الحياة لكي تصل إلى خط النهاية؟

وما هي خطوات البناء الذي يجب أن تسير فيها الجماعة المؤمنة إذا كانت قد بدأت من الصفر، أو من سفح الجاهلية، لكي تصل إلى القمة التي تحقق من خلالها هدفها العظيم؛ وهو تقرير ألوهية الله في الأرض وإقامة دار الإسلام في الأرض كلها ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ونستعرض هنا خطوات البناء، ثم نفصل ما يهمنا منها إن شاء الله تعالى.

يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١] ومن خلال نظرتنا إلى سيرة الرسول ﷺ باعتبارها المرجع النهائي الحي الذي شاء الله تعالى أن نتأسى به نستطيع أن نحدد معالم المنهج الحركي للجماعة المسلمة، ولا شك أن حركة الرسول ﷺ هي النموذج الرائع للجماعة المسلمة، لأنها بناء متكامل، ولأن حركة الرسول ﷺ قد بدأت من الخطوة الأولى، بل من قبل الخطوة الأولى، وحتى خط النهاية بتفصيل واضح نستطيع أن نتأسى به ونحن مطمئنون.

ونقول إن هناك مرتكزات لفهم **قضية المرحلية**. منها التتبع لسنة الرسول ﷺ في هذا الأمر. فلا بد أن نرجع إلى ما قرره الرسول ﷺ، لأننا مأمورون بالاقتداء به، مستهدين في هذا بالقواعد الشرعية التي تحكم حياتنا. ومن خلال القواعد الشرعية ومقاصد هذا الدين نعرف كيف نضع فقهاً يتمشى مع كل مرحلة من مراحل الحركة. هذه الحركة التي هي بمثابة الكائن العضوي في مسيرته من الميلاد وحتى النهاية.

ولا شك أن كل مرحلة من مراحل هذا النمو في حياة هذا الكائن العضوي تحتاج تعاملاً خاصاً، ومن ثم يحتاج فقهاً خاصاً يتمشى معه. وفقه المرحلية (التدرج في التطبيق) فقه هام جداً لا بد منه في تسيير الجماعة المسلمة، وفي تحديد جوانب الفقه الذي يتفق مع متطلبات كل مرحلة من المراحل، ومع نمو الجماعة المسلمة في كل مرحلة.

فمن خلال استعراضنا لخطو رسول الله ﷺ، ذلك الخطو المبارك، الذي يحتاج منا حكمة كبيرة جداً لكي نفقه ما في الأحداث ولكي نفقه أيضا ما وراء الأحداث كلها، بحيث نفهم كيف كان رسول الله ﷺ يقود الجماعة في خطاها من السفح إلى القمة. والذي لا يستطيع أن يدرك الحِكَم من وراء الخطة النبوية فإنه سيفقد كثيراً جداً من أسباب النجاح في مسيرته.

ونحن نجد أن هناك من يتحمس بصدق، ومن يكون شديد الحرص على إقامة الإسلام، ولكن لأنهم لم يفقهوا قضية تدرج التطبيق والمرحلية، والحِكَم وراء اجتهادات الرسول ﷺ، وحكمة الوحي حينما كان يخطط للمسلمين، ونتيجة عدم فقههم لتلك المرحلية اجتهدوا اجتهادات خاطئة قفزوا بها فوق المراحل، فأدى بهم ذلك إلى سقطات كثيرة، نتج عنها الصد عن سبيل الله، ونتج عنها الإعنات والمشقة للجماعات المسلمة، وأدى إلى إعطاء الجاهلية فرصاً أكبر لحرب الإسلام وتشويهه. وهذا كله لأن هذه الجماعات لم تستطع أن ترتفع لمستوى الفقه عن الرسول ﷺ وهو يتحرك حركته المباركة على مسرح الحياة في البعثة الأولى.

وخطوات البناء كما نستطيع أن نحددها من خلال الرؤية للأحداث -وهي بالطبع أمر اجتهادي- هي كالآتي:

١. الخطوة الأولى هي الفترة السرية التي فيها سرية الدعوة وسرية الحركة.
٢. إعلان الدعوة مع بقاء سرية الحركة.
٣. إعلان الحركة مع بقاء بعض الأفراد سراً حسب المصلحة وحسب الفرص.
٤. الدعوة العامة والصدع العام لكل البشر وكل الناس.
٥. البحث عن مكان آمن وطلب النُصرة لكي يبلغ الرسول ﷺ عن ربه سبحانه.
٦. ثم جاء الاتفاق مع أهل يثرب وبدء الاستعداد للهجرة. وهذه المرحلة أخذت قرابة عامين أو ثلاثة في الإعداد للهجرة، وإعداد دار الهجرة لاستقبال المهاجرين، ولاستقبال الجماعة المسلمة.
٧. الهجرة وتوطيد دعائم المجتمع والدولة.
٨. الإذن بالقتال وسرايا الاستكشاف.
٩. القتال الدفاعي في أول الأمر.
١٠. القتال العام لأهل الجزيرة.
١١. قتال الناس كافة ليسود دين الله في الأرض -أي نظامه وشرعه- لا لإرغام الناس على عقيدة الإسلام.

انتهى الأمر بفتح مكة، وتُوِّج جهاد الرسول ﷺ بخضوع مكة والطائف، وهي أكبر تجمعات العرب، وأكبر مراكز القوى في الجزيرة، لكي ينتقل محور القتال بعد ذلك في معركة مؤتة كي يلاقي إحدى أكبر قوتين في الأرض حينذاك. وبدأ الرسول ﷺ في هذا الأمر حينما بَعَثَ بَعْث زيد بن حارثة -رضي الله عنه- ثم بعث أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قبل أن يموت صلى الله عليه وسلم. فكأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بدأ في إعلان الحرب على القوى الكبرى من حوله خارج جزيرة العرب في ذلك الوقت.

فهذه خطوات البناء كما يتبين لنا من خلال استعراض السيرة. ولا شك أن هناك قضايا كثيرة ستقابلنا من خلال هذا الاستعراض.

المراحل الخمسة الأولى كانت -تقريبا- هي المرحلة المكية التي أُمر فيها المسلمون بكف الأيدي والصبر على الأذى والدعوة بالحسنى والبحث عن مكان آمن.

ثم جاءت المرحلة السادسة وهي الاتفاق مع أهل يثرب والاستعداد للهجرة. وكانت هذه الفترة هي بداية الانفراج، التي عاش المسلمون فيها وهم يحسون أن لهم أرضاً مرتقبة، فكانت هذه فترة انتقال، حدث للمسلمين فيها نوع من الفرج النفسي وهم مازالوا في مكة، وبدأوا يهاجرون أفراداً وجماعات إلى المدينة، ثم بعد ذلك كانت الهجرة النبوية التي استقر بعدها المسلمون في المدينة، بدأوا يُكونون دولة يتحركون منها إلى بقية العالم. وهناك أُذن لهم بالقتال، وامتدت المعارك حتى تم فتح الجزيرة العربية، وجاء الوقت لكي تُسلم لله عز وجل.

هذه هي خطوات البناء... **ويهمنا منها الآن العهود المكية وخاصة العهد الأول، وهو الفترة السرية.**

يقول الأستاذ محمود شاكر في كتابه عن السيرة -وهو كتاب جيد-: لم يكن الرسول ﷺ يُظهر الدعوة في مجامع قريش كالأندية والحرم، إنما كانت دعوته لأفراد بعينهم، ولم يكن المسلمون الأوائل يتمكنون من إظهار عبادتهم حذراً من تعصب قريش لدينها، فكانت **الخطوة الأولى** في البناء هي **الدعوة السرية** لأقرب الناس إليه، وكان -وهذا بطبيعة الحال- أول من آمن بالرسول ﷺ هم أقرب الناس إليه، كانت خديجة ثم أبو بكر وزيد وعلي. وكان هؤلاء هم أقرب الناس إلى الرسول ﷺ فقد كانت خديجة زوجته، وأبو بكر صديقه الأول، وكان علي في حضانته، وزيد متبناه، حتى كان يقال له زيد بن محمد. ثم دخل بعد ذلك الثمانية المعروفون الذين دعاهم أبو بكر، وعلى رأسهم عثمان والزبير، وكان هذا كله دعوة سرية متخفية، ولما دخل في دين الله ما يربو على الثلاثين كان من الضروري أن يجتمع بهم الرسول ﷺ على شكل جماعات، يرشدهم ويعلمهم، ليكون منهم القاعدة الصلبة التي يمكن أن يواجه بها أولئك الذين يقفون في وجهه، أو يحولون دون انتشار دعوته، واختار صلى الله عليه وسلم لذلك دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، فكان يلتقي بهم على شكل أسر يعلمهم ويوضح لهم الطريق، وكان إلى جانب دار الأرقم دور أخرى، تكون مراكز فرعية، حيث يذهب إليها رسول الله ﷺ أحياناً، دون انتظام، أو ينتظم فيها الصحابة الذين يختارهم، مثل دار سعيد بن زيد ابن عم عمر بن الخطاب وزوج أخته.

ومن المقولات التي تقال كثيراً؛ أن الذين يتبعون الأنبياء هم الضعفاء. وكلمة الضعفاء لا تعني ما فهمه الناس من أنهم هم العبيد والموالي والطبقة المتدنية من الشعب، وإنما المقصود بالضعفاء الذين لم يكونوا من الملأ الحاكمين، وفي الواقع أن هؤلاء الضعفاء كان كثير منهم من كبار رجالات قريش، وكانوا من الأشراف في قريش، ولم يكن أولئك الذين لبوا دعوة الرسول ﷺ من مجموعة واحدة، أو من طبقة واحدة كما يقولون، فلم يكونوا هم الفقراء والعبيد والموالي الذين نقموا على النظام الجاهلي كما يدعي التفسير المادي للتاريخ الذي يحاول أن يفسر أن الأنبياء يأتون بثورة على الأغنياء فيجتمع إليهم الفقراء والعبيد والمطحونون. وهذا ليس صحيحاً، إنما كان ينضم إلى الرسل دائماً أحكم من في القوم، وأخلص من في القوم، لذلك نجد أن الذين اتبعوا الرسول ﷺ في السنوات الست الأولى كانوا مجموعة كبيرة، أغلبهم من وجهاء قريش وأبنائهم، كانوا واحداً وثلاثين من وجهاء قريش وثلاثة من قبائل أخرى، اثنا عشر امرأة وأربعة عشر من الموالي والحلفاء. كأن الغالبية التي اتبعت الرسول ﷺ في الفترة الأولى من الدعوة كانوا من الأشراف وكبار القوم. فغير أبي بكر وعلي كان هناك عثمان وسعد بن أبي وقاص وخالد بن سعيد وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وهؤلاء كانوا من بني عبد شمس قوم أبي سفيان. ومن بني

عبد المطلب: عبيدة بن الحارث. من بني عبد الدار: مصعب بن عمير، ومن بني تميم: أبو بكر الصديق، ومن بني عدي: عمر بن الخطاب وسعيد بن زيد، وهكذا نجد أن أكثر من ثلاثين رجلاً من أبناء الأشراف والسادة في مكة هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ أولاً.

أما الموالي فكان عددهم أربعة عشر.

والنساء أيضاً كنَّ من شريفات قريش، لم يكنَّ جميعاً من الإماء والموالي. كان أولهن خديجة وأسماء وعائشة وأسماء بنت عميس وفاطمة بنت الخطاب وفاطمة بنت المجلل وفكيهة زوجة الخطاب وأم حبيبة بنت أبي سفيان ورملة بنت أبي عوف. كل هؤلاء كُنَّ من بنات الأشراف في قريش. وكانت هناك أم أيمن -حاضنة الرسول ﷺ- وسمية زوجة ياسر وبعض الإماء اللاتي آمنّ برسول الله ﷺ. فكأن أكثر من أربعين كانوا شرفاء وأغنياء ومن كبار القوم، فالمقولة التي تقال أن الأكثرية الذين دخلوا في الإسلام كانوا هم الضعفاء والعبيد، لأنهم رأوا في الدعوة الجديدة تخلصاً من سيطرة الأغنياء ومن جبروت الظالمين هي مقولة خاطئة. لم يكن الأمر كذلك، وإنما كانوا من السادة وأبناء السادة الذين ينعمون بالثراء والنعمة، كمصعب بن عمير وغيره الذين كانوا على درجة كبيرة من الترف، وكان حمزة وعمر من كبار قريش الذين كان لهم صولة وجولة يُعمل حسابها، هؤلاء هم الذين آمنوا، فلم يكن إذن الإيمان ناتجاً عن ضعف أو فقر، أو عن رغبة دنيوية، وإنما كان العكس صحيحاً، كانوا من الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف: ٢٨].

فكانت المرحلة الأولى مرحلة الدعوة إلى الإسلام بصورة سرية فيها الكتمان.

ويقول الشيخ محمود شاكر: بدأت الدعوة **أولاً**: بانتقاء العناصر المؤمنة الحركية النشيطة، وبدأ العمل الإسلامي بتكوين لبنات الجماعة المسلمة الأولى، يلتزم الأفراد فيها بالإسلام التزاماً كلياً، وقد رُوي عن عمر -رضي الله عنه- قوله "لا إسلام إلا بجماعة"[٨٥]. وبالتالي لا بد من تكوّن الجماعة مهما كان ما يقوله الناس والعلماء المأجورون أن هذه ليست من الدين، وإنما لأنهم لا يفهمون الدين ولا يعرفون الواقع، وبالتالي يحطون من قدر تكوين الجماعات، ويسيرون وراء الحكام الذين من مصلحتهم أن يستخلصوا فتاوى من العلماء الرسميين بأن إقامة الجماعة ليست من مقاصد الإسلام ولا من ضروراته.

ويقول: وعلى كل مسلم ضمن الصف الإسلامي الصحيح ألا ينحرف عنه ولا يحيد، ولا يبتعد عنه ولا يقف موقف المتفرج أو موقف الحياد كما يزعم بعضهم، إذ لا يوجد في حال الخلافات ما يُسَمى حياداً، فالمحايد إنما هو بجانب القوي وضد الضعيف، إذ لو وقف بجانب الضعيف لجعله قوياً وأخذ حقه، ولكن إذا ترك الأمر فإنما سمح للقوي أن يأكل الضعيف، ولا حياد في هذه الأمور، ولا بد أن يحدد الإنسان لنفسه، فالذي ليس مع الحق هو مع الباطل، ليس هناك وقوف في قنطرة بين الحق والباطل. لا بد إذن أن يكون المسلم مرتبطا بالجماعة، ولا يقف موقف المحايد. وإذا لم يطمئن المسلم إلى ذلك الصف، أو لاحظ بعض الهنّات، فعليه أن يسعى في

٨٥ رواه الدارمي عن تميم الداري عن عمر -رضي الله عنه- أنه قال: "إنه لا إسلام إلا بجماعة ولا جماعة إلا بإمارة ولا إمارة إلا بطاعة"، وقد ورد عن قتادة عن أبي الدرداء -رضي الله عنه- قال: لا إسلام إلا بطاعة ولا خير إلا في الجماعة والنصح لله وللخليفة وللمؤمنين عامة. ذكره ابن كثير في التفسير، وابن عبد البر في التمهيد.

إصلاحها. فإن وجدها كبيرة، أو وجد في الخط انحرافات لا تُقَوَّم أو لا يصح السير فيها فعليه أن يفتش عن جماعة أخرى يرتضي سيرها. والجماعات ذات الخط الصحيح لا يختلف بعضها مع بعض. وإنما دعت الظروف لقيامها، أو تعددت بتعدد الأمصار.

وإن لم يجد جماعة قائمة فعليه أن يقوم بنفسه بتأسيس جماعة أو يسعى في ذلك ويبذل جهده كله وإمكاناته كلها تأديةً للفريضة وقياماً بالواجب الملقى على عاتقه.

أما إذا كانت هناك جماعة تؤدي واجبها الإسلامي بحق وتخلص في العمل، وعَمِلَ هو على إيجاد جماعة أخرى فعمله باطل، يؤدي إلى تفريق كلمة المسلمين وعليه وزر كبير. والتزام الجماعة أمر خطير في الإسلام وخاصة أن الفرد لم يعد له دور في المجتمعات التي لا تقيم له أي وزن. وقد جاء في حديث رسول الله ﷺ (آمركم بخمس: بالجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد في سبيل الله فإنه من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يراجع)[٨٦]، وهذا يدل على أن تكوين الجماعة أمر ضروري، وهو قبل كل شيء. ثم يليه عدم الخروج من الجماعة، حيث إن مطالب الإسلام ومقتضياته وغاياته المهمة لا تتم ولا تتكامل إلا بالجماعة والجهود الجماعية.

وقد نجد أثناء الطريق من ينفر من الجماعة ويدعو إلى نبذ التجمع والاقتصار على الدعوة العامة، فهذا إما جهل بطريقة رسول الله ﷺ، وإما رغبة في تحقيق الزعامة والتفاف الناس حول هالة فارغة، وإما خوفاً وتهرباً من حمل المسؤولية.

ثانياً: تقوم الجماعة بدعوة الناس عامة لالتزام الإسلام وتطبيق منهجه في كل مجالات الحياة؛ العامة منها والخاصة، بقدر الإمكان.

ثالثاً: تقوم الجماعة أثناء الدعوة العامة باختيار العناصر التي تبدو عليها الحركية ويظهر فيها الخير، وتدعوها إلى العمل، وتشكل منها أسراً خاصة لبناء القاعدة الصلبة، ويكون هذا سرياً كسرية عمل رسول الله ﷺ. وبهذا لا يوجد تناقض بين الدعوة العامة وسرية العمل، بل على كل عضو في الجماعة أن يدعو إلى الإسلام علناً، ويظهر أثر ذلك في كل تصرفاته. وبالطبع من خلال المسلك الإسلامي فإنه يدعو للإسلام، ولا يدعو إلى الباطل، ولا يقف أمام دعوات الإسلام الموجودة[٨٧] حتى وإن لم يُظهر انتماءه لجماعة، الانتماء الحركي يظل سراً، أما إظهاره لشعائر الإسلام، والتزامه، ودعوته للالتزام، وعمله في الحرص على الإسلام، فإنه واجب على كل مسلم بقدر الظروف التي يكون فيها.

رابعاً: يجب عدم وقوع أفراد الجماعة الإسلامية في خضم الحياة المادية العنيفة، إذ ما أن يقع الفرد في ذلك حتى يتخبط فيه، ويبدأ في مصارعة التيارات، وهذا معناه أن يكون العمل للجماعة المسلمة هو الأمر الأول، وأنه لا يجوز أن يكون البحث عن المادة أو الراحة مُقَدَّم على العمل الجماعي.

خامساً: ينبغي عدم إهمال الروح المعنوية؛ كالثقة بتأييد الله ونصره إذا استقمنا على الطريق واتبعنا أوامر الله عز وجل. لا شك أن عمل المؤمن لا يتم ولا ينجح إلا بالتوكل على الله عز وجل. لا بد من الالتزام بخطة الرسول ﷺ والأمانة فيها، ثم التوكل على الله عز وجل حتى يظهر الله الحق سبحانه وتعالى، فهذه طريقة رسول الله ﷺ وهو الموحَى إليه من قِبل الله سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞

٨٦ أحمد ورجاله ثقات، والبخاري في التاريخ، والترمذي والنسائي والحاكم وابن حبان.

٨٧ الالتزام السلوكي بالإسلام شيء والدعوة العامة شيء آخر لا تجوز في فترة السرية، كما لا يجوز التماس بالجماعات الأخرى إطلاقا.

إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم: ٣-٤]، فيجب اتباعها تماماً، وكل طريقة غيرها تُعد ناقصة، بل وقاصرة إذا لم تتبع أمر رسول الله ﷺ. كالذين يعتمدون على الدعوة العامة فقط -كما تبنى ذلك كثيرون- فيعملون بلا جماعة، ولا يمكن بهذه الطريقة تكوين القاعدة الصلبة التي يمكنها أن تأخذ بزمام الأمور. فنحن نجد الشيخ محمود شاكر يقرر هنا أنه لا بد من التنظيم والحركة، مع الدعوة العامة أو البلاغ العام. كما لا يمكن الاعتماد على القوة فقط، فلا بد من الاعتماد على الالتزام الدقيق في العمل والتنظيم، وأخذ كل الأسباب التي تؤدي إلى الانتصار، ومنها؛ معرفة الجاهلية معرفة جيدة، واتخاذ الأساليب التي تقوي وعي الجماعة المسلمة، ومعرفة طبيعة المؤامرات التي تُكاد من حولها، وكذلك بناء القواعد والقيادات التي تتسلم مراكز القيادة التي تتحرك من خلالها الجماعة. فهذا كله لا بد منه.

ويقول: إن بعض الجماعات قد استعجلت في المنهج، وكان همها الوصول إلى الحكم، وما أن تربعت على كرسي الحكم حتى ظهرت اتجاهات متناقضة، حيث يعمل كلٌ لتأمين هواه، وله اتجاهاته، ووقعت الكارثة بين رفاق الأمس. وتكررت الصدامات المسلحة بين الأجنحة المتعددة، (وليس الأفغان عنا ببعيد، فالجهاد الأفغاني وغيره كان مصيبة كبيرة على الحركة الإسلامية عامة).

وكذلك لا يجب أن تتخذ الجماعة الإسلامية طريقة الاغتيال السياسي، أو التخلص من أفراد بأعينهم بسبب من الأسباب، إذ لم يلجأ رسول الله ﷺ إلى هذه الطريقة أبدا في مكة. وكان بإمكانه ذلك بكل يسر في مكة. ولكنه لم يفعل، لأن هذا يؤدي إلى اجتماع قوى الشر على الجماعة قبل أن يشتد عودها ويؤجج نيران التيارات مما يحول بين الناس وإعمال الفكر الهادئ في اكتشاف الحق وإتباعه. والجماعة المسلمة هي المجتمع الإسلامي الصغير في هذا الوقت الذي ينعدم فيه الحكم الإسلامي على ظهر الأرض، وهي الحاملة لأمانة الدعوة الحريصة على أن تبلغ الناس في حكمة ويسر

الجماعة المسلمة تعد نواة الأمة المسلمة ونواة المجتمع المسلم، وقائدها هو الأمير بالنسبة للدولة الإسلامية، والأمير هو خليفة رسول الله ﷺ، وطاعته من طاعته، وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠]، فالسمع واجب للقائد المسلم، وطاعته في طاعة الله فرض (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[٨٨]، والأمير هو إمام المسلمين ورئيسهم، كما أن طاعته واجبة، والقتال تحت رايته واجب حينما يأتي وقت القتال. روى الإمام مسلم عن رسول الله ﷺ قال (الإمام جُنَّة يُقاتَل من ورائه ويُتقَى به)[٨٩]، والهجوم عليه والكلام عنه بسوء مخالفة لأمر الله ورسوله ﷺ، وخلع للبيعة وهدم للعمل الإسلامي، وتفريق للصف، وتقويض للمجتمع. ومن هنا كانت أهمية تنقية الصف، والتي يجب أن تتم بين المدة والأخرى، بالاختبار والابتلاء، للمحافظة على الجماعة الإسلامية، والتأكد من خلوها من الشوائب.

والحكم الإسلامي تطبيق لقانون الله في الأرض، وتنفيذ لمنهجه، وحمل لدعوته للعالم، وهو غاية كل دعوة إسلامية، وأمل لكل داعية، وفرض على المسلمين كافة. من هنا كان عليهم واجب البيعة لأمير، وقد قال عمر ابن الخطاب -رضي الله عنه-: سمعت رسول الله ﷺ

---

٨٨ أحمد والحاكم والحديث صحيح.

٨٩ متفق عليه من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- ولفظه (إنما الإمام جُنَة يقاتل من ورائه ويتقى به فإن أمر بتقوى الله وعدل فإن له بذلك أجرا وإن أمر بغيره فإن عليه وزرا).

يقول (من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)[٩٠]، وقال ﷺ (من بايع إماماً وأعطاه صفقة يده وثمرة فؤاده فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر)[٩١].

ولما لم يكن اليوم هناك دار للإسلام يُطَبق فيها قانون الله فأمير الجماعة هو بمثابة الخليفة، طاعته واجبة، والبيعة له حتمية وإن لم يستطع أن يطبق المنهج ويقوم بتنفيذ الأحكام و (من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية). وقد ثبتت بيعة المسلمين لرسول الله ﷺ ولم تكن هناك دولة إسلام تقيم الحدود وتطبق منهج الله، فقد قال عبادة بن الصامت -رضي الله عنه- (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقوم بالحق لا نخاف في الله لومة لائم)[٩٢]، فتكون البيعة على العمل بالكتاب والسنة. ومتى أعطى المبايع البيعة كانت أمانة في عنقه لا يحل له الرجوع عنها، ولو أراد أن يرجع عن ذلك لا يجوز له ذلك إلا أن يخل الأمير بشروط البيعة، فعندها يجوز عزله، وكل رغبة في تقويض الجماعة أو الإساءة إليها إنما توجه أول ما توجه للقائد بالدرجة الأولى، لذلك نرى التهم تُكال للأمير، وتروج الشائعات ضده وضد جماعته من قِبَل أنظمة الحكم الجاهلية وأنصارها، تدعمهم الصليبية العالمية واليهودية، ثم أصحاب الطمع من المسلمين. ولقد كان المسلمون الأوائل يحافظون على تجمعهم فلا يتعرضون للقيادة إلا بخير، ولا يتلقون إلا من المسئول المباشر الذي كان هو رسول الله ﷺ، ولا يتحدثون إلا له، ويمثله الآن الأمير. وكان ﷺ يوجه اهتمامه وانتباهه الكبير إلى الأسرة التي تعد النواة الأولى للمجتمع الإسلامي، ولم يكن القصد من اللقاء ينحصر في التلقي والعطاء فقط، وإنما الحياة بين أعضائها حياة إسلامية تصور الحياة في ظل الدولة الإسلامية المرتقبة التي يعملون من أجلها. كان المسلمون في مكة يلتقون في مجموعات صغيرة، يتعايش بعضهم مع بعض من خلالها، هذا غير اللقاء برسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ولا شك أنه في مثل هذا الوقت حينما تبدأ الدعوة تصل إلى آذان القوم فإنهم يحاولون أن يساوموا صاحب الدعوة ابتداءً قبل أن يعلنوا الحرب عليه، وكان هذا ما فعلته قريش مع رسول الله ﷺ، حيث جاءه زعماؤها يقولون: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وأنت في الأمر فإن كان الذي تعبد خيرا مما نعبد كنا قد أخذنا بحظٍ منه وإن كان الذي نعبد خيرا مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه، وجاء الأمر الإلهي الحاسم الموحى بأن أمر هذه العقيدة لله وحده، ليس لمحمد فيه شيء، إنما هذا أمر الله الذي لا مرد لأمره ولا راد لحكمه، قال تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۞ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ۞ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۞ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [سورة الكافرون]، تأكيد يليه تأكيد، على أن هذه أول خطوة في الطريق، كما يجب أن تكون أول الشوط أمام الداعية -كل داعية- يتميز بها. ويصاحب ذلك المفاصلة الشعورية التي يحس بها المؤمن؛ أنه على دين وقومه على دين، وليست مفاصلة انعزالية، ولكنها مفاصلة شعورية، لأن المفاصلة الانعزالية تقطع الجسور بيننا وبين من ندعوهم إلى الله.

وكما قلنا: ما يهمنا هنا هو هذه الفترة الأولى، وهي الفترة السرية التي تتميز بسرية الدعوة وسرية الحركة، وإن كان الإسرار بالدعوة ليس قائماً بالصورة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ، لأن الإسلام واضح الآن وبيّن، وقد قامت جماعات وكُتّاب متعددون بتوضيح الإسلام

٩٠ أخرجه مسلم والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب وأخرجه ابن خزيمة وابن حبان في صحيحهما والحاكم وقال: صحيح على شرط البخاري وأخرجه النسائي بعضه.

٩١ مسلم.

٩٢ متفق عليه.

وبيانه، ولكن لا شك أن هذا البيان كان ناقصاً وكانت فيه فجوات، وينبغي للجماعة الراشدة أن تقوم لكي تصحح المفاهيم وتملأ هذه الفجوات. أما سرية الحركة فهي موجودة الآن حتى بالنسبة لكثير من الجماعات الأخرى.

سادسا: خصائص وركائز الجماعة المسلمة

ونختم الحديث الآن عن الجماعة المسلمة باستخلاص خصائصها أو ركائزها التي تقوم عليها كتكوين إيماني يجمع بين أفراده روح الإيمان.

الأمر الأول: الأخوة:

والأخوة مطلب أساسي بعد الإيمان وبعد الاجتماع على هذا الدين ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقد رأينا كيف تعامل الصحابة رضوان الله عليهم من خلال هذه الأخوة، حتى أن الإسلام -في أول الأمر- جعلهم يتوارثون فيما بينهم، لكي تندمج الجماعة المسلمة اندماجاً كاملاً، فكانت هذه الأخوة من أروع الأسس التي قام عليها البناء الإسلامي الأول، أو الجماعة المسلمة الأولى، فكان ذلك الرباط الذي جمع أفرادها أقوى من كل روابط النسب والدم والجنس وغيرها، ولا شك أنه كلما كان التلاحم قوياً بين أفراد الجماعة كلما كانت هذه الجماعة أقوى في إيمانها وفي دينها وفي تنظيمها، وأقوى كذلك في مواجهة أعدائها.

الأمر الثاني: التميز:

فالشعور السائد عند هؤلاء المسلمين أنهم شيء آخر غير الجاهلية، وكيان آخر غير الجاهلية، وأنهم يقيمون لهم مجتمعا خاصاً يبذلون فيه جهودهم كي يصل إلى الكمال المطلوب (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى)[٩٣]. وأول خصائص هذا المجتمع أنه متحد في العقيدة، متفق في الفكرة، منسجم في الشعور، متكامل، يؤدي كل عضو فيه دوره المكلف به لأداء وظيفته، كما أن القيادة فيه هي الفكر المحرك الذي يعطي التوجيه لجميع الأعضاء، وهي الصدر الذي يتسع لكل المجتمع ومتطلباته ومشكلاته، والتي تنقي له الفكر من الشوائب خشية أن يزيغ، كما تنقي الرئة الدم في الجسم. ويشعر المسلم أنه غريب في المجتمع الجاهلي فلا يشعر بالانتماء إليه، إنما يشعر بانتمائه إلى مجتمع آخر هو المجتمع المسلم ولو كان بعيداً عنه.

الأمر الثالث: التعاون:

ومن سمات وخصائص هذه الجماعة المسلمة التعاون، وليس التعاون فقط في أداء الوظائف وتكامل البناء، وإنما التكافل أيضا في الأمور المادية وفي أعباء الحياة كلها. ولا شك أن أبا بكر -رضي الله عنه- كان يضرب المثل في هذا عندما كان يعتق كثيراً من الموالي المسلمين، وقد لامه أبوه عثمان أبو قحافة ولم يكن يدري بعدُ طبيعة هذا الدين، فقال له: يا بني إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلداً يمنعونك ويقومون دونك، فقال رضي الله عنه: يا أبت إني إنما أريد ما أريد لله عز وجل. فلا شك أن التعاون على المصلحة وفي الأمور المادية والتكافل في كل الأمور هو ديدن الجماعة المسلمة، وقد كان الصحابة يحبون أن يشتركوا حتى

---

٩٣ مسلم وأحمد.

في البلاء ولا ينفردون بالعافية، كما حدث لعثمان بن مظعون -رضي الله عنه- حينما رد جوار الكافر الوليد بن المغيرة ورضي أن يعيش كما كان الصحابة يعيشون.

الأمر الرابع: الطاعة:

كان هذا المجتمع يشعر أن له رسولاً قائداً، فكانت طاعته واجبة بصفته رسول الله ﷺ ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠] وكان كل فرد يشعر أن النبي ﷺ أولى به من نفسه ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] وكان رسول الله ﷺ المثل الأعلى للمؤمنين ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، كما أن طاعته واجبة بصفته رأس أو رئيس المجتمع وقائده، وبه ﷺ تتمثل الدعوة، فلم يكن أي مسلم يتصرف دون إذنه ﷺ، وكانت إشارته أمراً، ورغبته فرضاً يجب تحقيقه. وكذلك الأمير اليوم تجب طاعته بصفته رئيسا يمثل المجتمع المسلم ويقيم حدود الله بينهم، وهو في ذلك يمثل رسول الله ﷺ.

الأمر الخامس: البذل والفداء:

كان المسلمون يبذلون كل شيء في سبيل الرسول ﷺ وفي سبيل دعوته، نتيجة تقديرهم العميق له، وكونه رمزاً للدعوة. ويتجلى هذا البذل والفداء في نماذج كثيرة؛ منها ما حدث عندما نام علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- على فراش النبي ﷺ وكان هدفاً للقتل. بل يتجلى ذلك في كل معركة خاضها رسول الله ﷺ حيث كان الصحابة رضوان الله عليهم يحمونه بأنفسهم ويتلقون الضربات عنه.

الأمر السادس: الوعي:

كان كل مسلم يعرف موقفه تماماً في المجتمع الذي يعيش فيه، ويعرف التيارات التي تحيط به. ومن خلال هذه المعرفة يتخذ لنفسه موقعاً داخل المجتمع الجاهلي يتعرف على ما يُحاط ضد الإسلام من مؤامرات، ويراقبها مراقبة دائمة، ويعرف من خلالها تحرك الأعداء، ويبلغ قيادته بشكل دائم ومتصل لتتخذ المواقف المناسبة التي تحبط عمل الخصم وتحول دون بلوغه الهدف الذي يصبو إليه.

الأمر السابع: النظرة الصحيحة:

كان الفرد المسلم يقدر الرجال تقديراً صحيحاً بعيداً عن كل هوى، فليس في تقديره أثر للمال أو الجاه أو المركز أو الطبقة. بل هو مقدار قربه من الرسول ﷺ قائده وموجهه، ومقدار تطبيقه للإسلام وانقياده له، ووعيه. قال الله تعالى ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

وكذلك كان هذا المجتمع يحمي بعضه بعضاً، فيلتقون سراً، ويفدون هذا الحق بأنفسهم، ويبعدون عنه الخطر كما فعل نعيم بن عبد الله -رضي الله عنه- حينما أبعد عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- من وجهته لقتل الرسول ﷺ إلى أخته وزوج أخته، ونعيم كان من بني عدي أيضاً كما كان عمر -رضي الله عنه-.

الأمر الثامن: الالتزام الشديد بدقة الحركة ودقة السرية:

كما حدث من فاطمة بنت الخطاب حينما دُعيَت إلى أبي بكر -رضي الله عنه- فلم تتكلم أمام أمه لولا أنه أمرها. كما أن الحماية كانت تتم بدخول بعض المسلمين في جوار بعض زعماء قريش، أو كانت تتم بهجرة المسلمين من البلد الذي يُؤذَوْن فيه إلى بلد أقل إيذاءً أو فيه قدر من العدل.

ويتساءل بعضهم هل يجوز الانضواء في صفوف مؤسسة جاهلية لاتخاذها مظلة يتقي بها شر الأعداء ويعمل من خلالها لفكرته؟ ويستندون في هذا التساؤل إلى دخول الرسول ﷺ في جوار المطعم بن عدي بعد عودته من الطائف، وكذلك دخول أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- في جوار مالك بن الدغنة، ودخول عثمان بن مظعون -رضي الله عنه- في جوار الوليد بن المغيرة، ثم دخول الرسول ﷺ مع بني هاشم وبني عبد المطلب في شعب أبي طالب.

والجواب: لا يصح ذلك لأسباب كثيرة منها:

أولاً: دخول فرد في جوار فرد يختلف عن دخوله في حماية مؤسسة لأن علاقة الفرد بالآخر تبقى علاقة فردية، ربما تتوطد وتزداد، أو تنفصم عندما يجد أحدهما أن هذه العلاقة غير منسجمة مع أفكاره ومبادئه، كما حدث عندما رد أبو بكر -رضي الله عنه- جوار ابن الدغنة، وعندما رد عثمان -رضي الله عنه- جوار الوليد بن المغيرة. أما العلاقة بين الفرد والمؤسسة فهي تختلف عن ذلك. فمادام الفرد عضواً في المؤسسة فيجب أن يخضع لها ويسير على نهجها ويتبع أفكارها ولو كانت تغاير أفكاره، لأنه هو الطرف الضعيف في هذه العلاقة.

ثانياً: دخول الرسول ﷺ مع بني هاشم وبني عبد المطلب كان دخول فرد مع أسرته، وكان هو المحور، بينما طلب من الآخرين اللجوء إلى الحبشة كي يجدوا مكاناً يأمنون فيه. أما هو ﷺ وكان مُحافَظاً عليه من أعدائه باتفاق عشيرته كلها في هذا، وكان هو المحور الذي يدور حوله المجتمع والعنصر المحرك فيه. حتى أنه كان أحياناً إذا آوى إلى فراشه ﷺ رأى ذوو قرابته أن ينتقل إلى فراش آخر من أبناء عمومته حتى يظل في حماية بعيداً عن الأذى.

ونلاحظ أنه كثيراً ما يتخذ الإنسان هذا الدخول في المؤسسات لتحقيق بعض مصالحه، فيحاول أن يجد المسوغات له، وبعد المناقشة تتبلور في ذهنه حتى تصبح حقيقة ويُصبح الأمر المادي هو كل شيء. لذلك نرى أن الدخول في المؤسسات والاحتماء بها ليس من باب الدخول في جوار، لأن هذا يجبر المسلم على أن يكون هو الجانب الضعيف الذي يقبل ما لا يجوز له قبوله. لكن إذا وُجِد في أي وقت مثل هذا النظام أو كانت الحماية من دولة أو مجتمع أو مؤسسة بلا شروط فهذا يجوز بطبيعة الحال، ولكن هذا يكون بالتفاهم مع الجماعة المسلمة ومع قيادتها.

هذه صورة من حياة الجماعة المسلمة وخصائص أفراد الجماعة المسلمة، فبعد الإيمان بالعقيدة، وبعد البيعة للقيادة، وبعد الطاعة لهذه القيادة، تكون الأخوة، ويكون التميز بالتجمع حول الفكرة والاتحاد في العقيدة، ويكون التعاون على كل أمور الحياة المادية والمعنوية والمصالح وكل شيء. ويكون أيضاً الطاعة للقيادة وحمايتها والحرص عليها، وكذلك البذل والفداء في سبيل بقاء الجماعة واسترخاص النفس في سبيل ذلك. ويكون كذلك شدة اليقظة من المسلم وهو يعيش في المجتمع الجاهلي، بحيث يتعرف على كل ما يُحاك ضد

المسلمين من مؤامرات، فيكون عيناً لقيادته يزودها بكل ما يعينها على التخطيط السليم، وكذلك ينبغي أن يكون المقياس الذي يتعامل به مع الأفراد هو قربهم أو بعدهم عن الحق ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]. وكذلك ينبغي أن يحرص المؤمنون على حماية بعضهم البعض، من خلال التزامهم الدقيق بسرية العمل ودقة النظام، وكل ما يؤدي إلى الحفاظ على المسلم ليظل مُبَلِّغاً عن الله رب العالمين.

وبهذا الحديث ينتهي استعراضنا بقدر الإمكان عن الجماعة المسلمة وأهميتها وكيف كانت في واقع الحياة في المجتمع الأول، وما هو حكمها الشرعي، وما هي الأسانيد الشرعية لهذا، كما تحدثنا عن المصالح والنتائج التي تترتب على قيام الجماعة سواء في حياة الفرد أو في حياة الأمة أو في حياة الجماعة نفسها.

وكل هذا له صلة وثيقة بموضوع الفصل الذي تناولناه بالشرح فصل "الجهاد في سبيل الله".